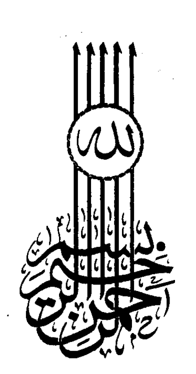
رسائل إلى الشباب المسلم
(٦)

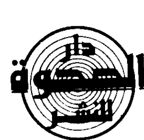
التيارات الوافدة

أنور الجندي


بسم الله الرحمن الرحيم

التيارات الوافدة

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ ــ ١٩٩٤م



دار الصحوة للنشر والتوزيع ـ القاهرة

الإدارة : ٧ ش السراى ـ أول المنيل ت . فاكس : ٩٨٧٩٢٤
الفرع : حدائق حلوان ـ بجوار عمارات المهندسين ت ٣٧٤٠٠٧١

مقدمة

فى إطار هذه الدراسة الجامعة للإسلام وقضاياه الكبرى فى العقد الأول من القرن الخامس عشر الهجرى ، تجىء موجة التيارات الوافدة المطروحة فى أفق الفكر الإسلامى ، لتمثل أخطر التحديات التى يتحتم معرفة أبعادها وحصارها ، وكشف زيفها، ومقاومة تناميها وانتشارها فى مناهج العلوم الإسلامية .

ونحن نمر اليوم بمرحلة أشبه بالمرحلة التى مر بها الفكر الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى ، عندما ترجمت الفلسفات اليونانية ، ونشأت عنها عملية تغريب واسعة النطاق ، استطاع علماء المسلمين حسمها ؛ بالكشف عن أخطاء مفاهيم الفلسفات الوافدة وتعارضها مع مفهوم الإسلام ، كما كشفوا عن المذاهب الهدامة التى نشأت نتيجة هذه التيارات .

ولقد عمل النفوذ الأجنبى على إحياء هذه المذاهب الوافدة والدعوات الهدامة ، وإعطائها صورا جديدة ومظاهر براقة خادعة ، وأسبغ عليها مظهراً علميا ليجعلها متصلة كأنها حقائق علمية ، بينما هى فروض عقلية قابلة للخطأ والصواب .

وكان لسيطرة النفوذ الأجنبى على التعليم والثقافة والصحافة الأثر الكبير فى ترويج هذه العملة الزائفة ، التى تدعوها إلى الإلحاد والإباحة والكشف وإنكار الأديان والوحى والجزاء الأخروى .

وكانت الماسونية هى الوكر الأكبر لتفريخ هذه الفلسفات ، بعد أن انتشرت فى العالم الإسلامى خلال الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية ،والتى عمدت إلى تحطيم الوحدة الإسلامية وإسقاط السلطان عبد الحميد ؛ إثر موقفه المشرف من معارضة أهداف الصهيونية فى الاستيلاء على فلسطين ، ثم كانت البهائية والقاديانية ، ومذاهب الروحية الحديثة ، والدعوة إلى الإقليمية الضيقة والقومية بمفهوم الغرب والعنصرية .

وكان أخطر ما عملت له قوى الغزو الثقافى هدم مفهوم الإسلام فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية والتركيز على مفاهيم العلمانية ، التى ترمى إلى فصل الدين عن السياسة فى بناء المجتمعات ، وحجب الشريعة الإسلامية ومفهوم الاقتصاد الإسلامى ، وإعلاء شأن النظام الرأسمالى أو النظام الماركسى ، وقد أثبت كلاهما عجزه عن العطاء .

ثم كانت هناك محاولات فرض الفلسفة المادية من خلال الدارونية ، ثم من خلال مفاهيم النفس والأخلاق والاجتماع (فرويد وسارتر ودوركايم) وهى مفاهيم تحمل فى أصولها المفهوم المادى للإنسان ، وتعامله معاملة الحيوان ، وتفرض عليه المناهج التى تفسر بها المادة، دون اعتبار للطبيعة الإنسانية الجامعة بين الروح والمادة والنفس والعقل ، وقد كان لهذه المفاهيم آثارها البعيدة المدى فى تاريخ الأدب ونقده ، وفى دراسات المجتمع وفى دراسات العلوم نفسها .

ويمكين القول إن المخططات الوافدة استهدفت أساسًا تدمير مفهوم الإسلام الجامع ، بالانشطارية والتشكيك فى الوحى والنبوة والقرآن ، وتزييف تفسير التاريخ والتراث، وإثارة الشبهات حول الفصحى لغة القرآن ، وإثارة الشبهات حول مجموعة من الحقائق الأساسية : على النحو التالى :

أولا : تمزيق الوحدة الإسلامية بالدعوة إلى الإقليميات والقوميات، وإثارة روح الشعوبية .

ثانيا : هدم عقيدة التوحيد الخالصة عن طريق إشاعة نحل الوثنية والدهرية والباطنية والإلحاد والتصوف الفلسفى .

ثالثا : هدم الثقافة الإسلامية الجامعة بالترويج لنظرية دارون ، وبالدعوة إلى الفلسفة المادية والتفسير المادى للتاريخ .

رابعا : هدم مفهوم الإنسان عن طريق نظريات العلوم الإنسانية والاجتماعية (الأخلاق والنفس والاجتماع) .

خامسا : هدم مفهوم الشريعة الإسلامية بإثارة دعوات العلمانية والعقلانية وغيرها .

سادسا : زلزلة مفهوم عالمية الإسلام : بالدعوة إلى وحده الأديان : القاديانية ، البهائية .

أولا : تمزيق وحدة الإسلام بالدعوة إلى القوميات والإقليميات وخلق روح الشعوبية والصراع

إن أول هدف حرص النفوذ الغربى على ضربه فى محيط الإسلام والعالم الإسلامى هو الوحدة الإسلامية الجامعة ، التى قامت أساسًا على وحدة الفكر المستمد من التوحيد الخالص ، والتى كان القرآن الكريم قاعدتها الأصلية وركيزتها الأولى . ولما كان هدف الاستعمار هو تمزيق هذه الوحدة لتفكيك هذا الإجماع ، الذى كانت تمثله الدولة العثمانية الجامعة لعنصرى العرب والترك ، والتى كانت تحمل لواء الخلافة الإسلامية ، والتى تعتبرها كل الدول الإسلامية؛ من فرس وهند وماليزيين وغيرهم بمثابة القاعدة العريضة للأمة الإسلامية .

ومن هنا فقد قامت المؤامرة على أساس القضاء على هذه الوحدة وتحطيم هذه القاعدة ؛ وذلك بطرح نظريات القوميات والإقليميات، وفرضها بالقوة فى إطار النفوذ الاستعمارى ، ومحاولة خلق فلسفة وتاريخ وتراث لهذه الإقليميات بهدف إقامة الحدود بين الأجزاء والفصل بينها .

ويقول الفيلسوف المسلم محمد إقبال : إن الإنسانية لن تستريح أبدا ، مادامت تسودها هذه النظرية المشؤومة التى تقطعها إربا إربا ، بحيث لا يكاد الصدع يلتئم .

ولقد حملت نظرية القوميات مفهوم العنصرية وإيقاع الخلاف والصراع بين الجيرة المتلاقية ، وإثارة العصبيات التى تؤدى إلى الفرقة والخلاف ، ولقد كان هدف إثارة دعاوى القوميات والإقليميات بعيد المدى ، يرمى أساسًا إلى غرس العنصرية الصهيونية على أنها قومية تصارع العروبة ، وقد سبقتها الدعوة إلى إخراج الدولة العثمانيه من وحدتها الجامعة بين الترك والعرب ، بالدعوة إلى الطورانية التى حملت لوء العنصرية البغيضة .

ولما كانت تركيا فى عهد الاتحاديين أعداء الوحدة الإسلامية قد حملت لواء الخصومة للعروبة فقد أدى ذلك إلى ظهور دعوى قومية عربية مماثلة ، كانت مصدرا لتمزق المسلمين إلى قوميات .

ولقد كانت فكرة القوميات فى الغرب محاولة تحقق بها القضاء على الوحدة المسيحية الأوربية من أجل إفساح الطريق لنفوذ اليهود الذين كانوا محصورين فى الجيتو ، وكان قضاؤهم على الوحدة المسيحية هو العامل الأساسى لتمكنهم من السيطرة ؛ ثم

جرت المحاولات للقضاء على الوحدة الإسلامية التى كانت تمثلها دولة الخلافة، لفتح الطريق أمام الصهيونية إلى فلسطين .

وقد جرت المحاولات لإدخال مفهوم القومية العربى إلى تصوير العلاقة بين العروبة والإسلام ، على النحو الذى وقع بين المسيحية والقوميات فى الغرب مع الاختلاف البعيد والعميق ، وأهمها أن الإسلام هو الذى صنع وحدة العرب ، وقد خدعت دعوة القومية كثيرين ، وظنوا أنها طريق موصل لعزة العرب ؛ ولكن التجربة كشفت عن فساد هذا الخطر الوافد الذى انحرف عن مفهوم الترابط الجامع بين العروبة والإسلام ، وحين تسلطت قوى التغريب ففرغت العروبة من مفهومها الأصيل والتمست لها مفهوما علمانيا خادعا ومفرغا من كل القيم .

وقد كانت دعوى القومية العربية على النحو الذى ظهرت به بمثابة حرب على الوحدة الإسلامية ، ذلك أن مفهوم العروبة التى قام بها الدعاة عند سقوط الخلافة كان مفهوما إسلاميا أصيلا . أما الدعوة التى جرت من بعد فقد كانت محاولة للقضاء على الأمة الإسلامية والعروبة معا ،

وكان أخطر ما دعوا إليه القول بأن العروبة عقيدة كالدين ، وقولهم إن الإسلام نفسه هو تراث عربى ، وكان ذلك كله زيفًا يختلف مع مفهوم الإسلام ، ولذلك فإنه بعد كل ما حشد له من قوى فقد سقط وأحدث سقوطه دويا شديدا .

فقد كانت حركة القومية العربية حركة علمانية خدع بها الكثيرون أول الأمر ، ثم تكشف أنها تهدف إلى تدعيم الصهيونية ، وأنها تحارب الإسلام بوصفه مجتمعا واحداً، وبوصفه منهج حياة ورسالة، وكانت القومية بهذه الصورة تحمل مفاهيم مضطربة بين الليبرالية والاشتراكية .

ويقول الدكتور محمد على الزعنى : إن الدعوة للقومية المدخولة نتاج ماسونى إذ هما سكين شق به أتاتورك العرب عن الترك ، ونفذ لما دعاه من فصل الدين عن الدولة، وفرض العلمانية ، وجعل الخمسين ألف مسجد فى تركيا عديمة الأثر فى الواقع .

ولكن اليقظة الإسلامية سرعان ما اكتشفت أهداف الدعوة إلى القومية وإلى الإقليمية، وتحققت من فشل التجربة، وعلا صوت صادق بأنه لا عروبة إلا فى إطار الإسلام .

لقد كانت القوميات نتاج ماسونى كذلك كانت العلمانية أيضا. لقد كان استيراد

نظرية القومية من الغرب عاملا جديدا من عوامل تعويق النهضة ، والحيلولة دون جمع الشمل بعد أن عمق الاستعمار عوامل الفصل بين العرب والمسلمين، وبين العرب وأنفسهم، ووضعهم فى إطارات القوميات الضيقة؛ سورية ومصرية وسودانية ، وحاول أن يجعل لكل قومية إقليمية عوامل فصل وتميز ، تحول بينها وبين الالتقاء مع جاراتها فى روابط اللغة والفكر والعقيدة ، ولقد كان فهم العرب للقومية فى أول الأمر واضحا صريحا ، فالعروبة تتحرك داخل إطار الإسلام ، لا من أجل إعلاء العنصر أو التميز بالجنس ، بل من أجل مقاومة الاستعمار ، والقضاء على الاحتلال ، فهذه الصيحات الوطنية كلها لم تكن خارجة عن إطار الإسلام ، ولكنها كانت تتحرك داخله وبفضله ؛ فالإسلام هو الذى علم المسلمين حماية الأرض والعرض ، وإن كل الثورات الوطنية فى العصر الحديث خرجت من عباءة الإسلام أساسا ، ثم تحول دعاتها إلى مفاهيم علمانية منفصلة عن مفهوم الوطنية الإسلامية الجامع ، لقد عمد النفوذ الأجنبى إلى تحويل الاتجاه الوطنى إلى سور عال يحجب الوحدة الجامعة ، بل ويقيم نوعا من الخلاف والعدوان بين الأجزاء التى كانت واحدة ، وكان المفكرون والزعماء يؤمنون بوحدة المسلمين أساسًا ، وبوحدة العرب مع المسلمين فى رابطة الفكر والعقيدة ، ولكن دعاة النظرية القومية العربية لم يلبثوا أن طرحوا مفهوما جديدا للقومية ، يسلخ العروبة من مقوماتها وارتباطاتها ، ويجعلها أشبه بالقوميات الأوربية ، استعلاء وعدوانا ، فإذا كانت النظرية الغربية فى القومية قد استبعدت الدين ، فإن على النظرية العربية فى القومية أن تستبعده ، وإذا كان من أصحاب النظرية استبعاد الدين ، فهل فى إمكانهم بالتطبيق على العرب استبعاد الإسلام (وهوليس دينًا بمفهوم الغرب اللاهوتى القاصر) ؟

ذلك ما عجزوا عن تصوره فالإسلام ليس دينا كالدين الغربى الذى استبعدته أوربا ، ولم يقع المسلمون يوما فى خلاف مع الإسلام كالخلاف الذى وقع فيه الغربيون مع المسيحية ، ولم تكن العروبة يوما نقيضا للإسلام كما جاءت القومية الغربية نقيضا للوحدة المسيحية .

كذلك فإن اللغة والتاريخ وهما عنصر القومية الأولى لاينفصلان فى الثقافة العربية عن الإسلام ، ومن هنا يتبين استحالة تطبيق التعريفات القومية الغربية على علاقة العروبة بالإسلام . وإذا كانت اللغة دعامة الوحدة فإنها لاتنفصل عن القرآن والإسلام ،وليست العبرة بمن يتكلم عربيا ، بل العبرة بمن يفكر عربيا ، أما التاريخ فليس للأمة العربية تاريخ

منفصل عن الإسلام أو سابق له، والإسلام قبل ذلك كله وبعد ذلك كله ليس دينا عباديا لاهوتيا ، بمعنى أنه علاقة بين الله والإنسان ، بل هو ضابط العلاقتين بين الإنسان والله ـ تبارك وتعالى ـ دين الإنسان والمجتمع .

وبعد : فإن الأمة الإسلامية تتحرك أساسا فى ثلاث حلقات متصلة ؛ الوطنية (بمعنى الأرض) العروبة (بمعنى القوم) الإسلام (بمعنى الوحدة الإسلامية الجامعة) فإذا اجتاحت ديار الإسلام عملية استعمار ، وتراجع المسلمون إلى الأرض ، فإنهم فى نظرتهم الوطنية لا ينفصلون مطلقا عن الحلقتين الأخريين ، وإذا وقف الإسلام فى موقف العروبة فإنهم يؤمنون بأنها ليست نهاية ولكنها مرحلة للوصول إلى الوحدة الإسلامية .

وبالجملة فإن العرب يؤمنون تماما ، بأنه لم يكن لهم وجود حقيقى كأمة ولا كوحدة قبل أن يجمعهم الإسلام ويوحدهم ، وليس فى تراثهم شاعر واحد تحدث عن العروبة أو جاءت هذه العبارة فى شعره ، فقد كانت القبيلة هى الأساس ، وهنا يبدو خطأ محاولة تفضيل العروبة على الإسلام بهذا السبق الجاهلى القبلى ، والعكس هو الصحيح فالإسلام هو الذى صنع العروبة ، والعرب فى حقيقتهم مادة الإسلام .

ولقد تبين من خلال التجربة التى قامت فى البلاد العربية من قبل فساد محاولة جعل القومية فى أفق الغرب بديلا للإسلام ؛ فليس الإسلام دينا بمفهوم دين الغرب ، وليست العروبة قومية بمفهوم القومية الغربية ، وليست العروبة فى مواجهة الإسلام أو العكس ، بل هما متكاملان كوجهى العملة ، والإسلام أصل وأساس ، ولا عروبة إلا فى إطار الإسلام . والعروبة بمفهومها الأصيل تتكامل مع الأمة الإسلامية قاطبة بالأرض والفكر واللغة والثقافة ، فهناك انفتاح ولقاء وتكامل ، وليس هناك صراع أو صدام ، وليس هناك فاصل بين تاريخ الإسلام وتاريخ العرب طوال هذه القرون إلا فى الفترة الأخيرة بعمل الاستعمار .

ولا يقر الإسلام قومية الصراع والتنافس والاستعلاء بالدماء أو قومية مفرغة من مبادئ الإسلام وقيمه فى بناء المجتمع والتعامل مع الإنسانية .

ولقد كان لإسقاط الخلافة أثر خطير ودوى شديد ، فقد كشف الحدث عن ضخامة المؤامرة على المسلمين، ومنذ سقطت الخلافة الإسلامية، وتؤرخ بها الأحداث ، فلم ينم المسلمون على الضيم ، وأخذوا يفكرون فى التجمع مرة أخرى تحت أسماء مختلفة وفى

محاولات جادة للتوحد والتضامن . لم يستسلم المسلمون للمؤامرة الخطيرة ، إذ كان سقوط الخلافة الإسلامية عملا بعيد المدى ، من أعمال المكر السياسى والدهاء الاستعمارى، والتآمر الصهيونى البالغ القسوة والعنف ، فى فترة كانت من أقسى فترات الضعف والتخلف ، وقد توالت الدراسات والأبحاث والاجتماعات فى سبيل دراسة هذا الحدث الخطير، وإقامة البديل له ، ولم تحل مؤامرات الإقليميات والقوميات وإحياء الأجناس والدماء دون فهم أبعاد المؤامرة الخطيرة التى كانت تجرى لتمزيق الأمة الإسلامية.

ودعا بعض المفكرين إلى إقامة كومنولث إسلامى أو هيئة أمم إسلامية ، وقد كانت خطوات التضامن الإسلامى من أبرز هذه الخطط ، وقد جاء ذلك بأسرع مما كان يتصور أعداء الإسلام ، ممن ظنوا أن سقوط الخلافة سوف يقضى على وحدة المسلمين إلى الأبد .

ونحن اليوم نرى المسلمين على الطريق للغاية الكبرى فى جمع كلمة المسلمين، وتعميق ذلك الترابط القوى بينهم مرة أخرى ، ولقد عمل المسلمون منذ ذلك اليوم فى سبيل الوحدة الإسلامية ولم يستنيموا إلى الاستسلام أمام مؤامرة النفوذ الأجنبى .

ثانيا : هدم عقيدة التوحيد الخالص

تجددت فى السنوات الأخيرة الدعوة إلى إحياء الفكر الوثنى الذى كان ذائعا قبل الإسلام ، وجرى البحث حول تكتيل الجهود لإبراز معالم هذا التاريخ، ومحاولة خلق تراث فكرى أو أدبى لهذه المحاولة ، وقد جرى العمل لذلك فى كل أجزاء العالم الإسلامى وأقطاره ، وركز فى كل قطر على تاريخ سابق للإسلام ، فى محاولة لرده إلى الحياة وابتعاثه وربطه بالحاضر عن طريق الفكر والثقافة . والمعروف أن العالم الإسلامى قبل ظهور الإسلام قد عاش حضارات مختلفة أبرزها الفرعونية والفينيقية والفارسية واليونانية والهندية ، وكلها حضارات استمدت مصادرها الأولى فى الأغلب من الأديان المنزلة ، ثم انحرفت عنها وقد التمست مفاهيم قوامها السيطرة والاستعلاء والعدوان ، وعرفت فى محيطها الداخلى بنظام المفاضلة الكاملة بين طبقتين هما السادة والعبيد .

وقد أبرزت فلسفات هذه الحضارات نظام العبودية، وجعلتها نبراسا لها ، فضلا عن العدوان والغدر للأمم المجاورة ، وما تزال صورة الصراع بين الفرس والروم ــ قبل الإسلام ـ من أبرز الأمثلة على هذا المنهج الذى عرفته هذه الحضارات ، وما اتصل بها من أنظمة وفلسفات ، وقد اتخذ النفوذ الغربى من حملات البحث عن الآثار والكشف عنها فى البلاد العربية والإسلامية أداة خطيرة فى تشكيل قضية جديدة ، تطرح من خلال هذه الآثار عن الحضارات القديمة الوثنية ، التى حطمها الظلم وقضى عليها الانحراف عن منهج العدل والحق ، والتى عرفت بالعدوان والظلم والإباحة ، حتى جاءت نهايتها عبرة لدارسى قيام الأمم وسقوطها ، كما ارتبطت الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام بالدعوة إلى الإقليميات والقوميات ، وقد برزت فى البلاد العربية دعوات الفرعونية والفينيقية والآشورية والبربرية وغيرها ، وأحاطها دعاتها والعاملون من ورائها والقوى الاستعمارية الدافعه لها بكثير من عوامل التحريك والإثارة ، غير أن هذه الدعوات لم تجد لها من القوة الذاتية ما يمكنها من الاستمرار فإن التراث المحفوظ منها لم يكن قادراً على أن يشكل قاعدة يمكن التحرك منها ، ذلك لأن الإسلام حين جاء منذ أربعة عشر قرنا قد أنهى الوجود الفكرى والاجتماعى للأمم والمجتمعات ، وشكل لها وجوداً جديدا ما يزال حيا متجدداً .

ولقد تجاوز المسلمون تاريخهم القديم كله بالإسلام مرتين ، مرة من حيث أخرجهم الإسلام من مفاهيم الوثنية ، وعقائد الثنوية والتعدد وعبادة الأوثان وتقديس الفرد وتحويل البطل إلى إله ، ومرة أخرى حين استقطب الفكر البشرى كله، وامتص خير ما فيه من

عصارة ، وتجاوز عما ليس متصلا بالأصول الأصيلة له من التوحيد والعدل والإيمان بالغيب والمسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقى .

١ ـ الوثنية :

وقد استهدفت التيارات الوافدة الداعية إلى إحياء ما قبل الإسلام ، إحياء الوثنية والجاهلية ، وهى ترمى فى مجموعها إلى تهيئة النفس والعقل الإسلاميين لتقبل تعدد الآلهة والأصنام ، والنظر فى بساطة إلى أمور قطع الإسلام فيها بالرفض ، ونهى المسلمين عن الإعجاب بها والتوقف عن معارضتها . ويتصل بهذه الوثنية عادات وتقاليد ونظم ومثل وكلمات كلها مما يعد سائغا أو متقبلا فى النفس العربية الإسلامية ، كالعادات الجنائزية وصلات الأحياء بالأموات، ثم العادات الاجتماعية فى الموالد والأفراح والمآتم ، ونحن نعلم أنه فى عصر ما من عصور ما بعد الإسلام استشرت هذه الوثنيات وعادت إلى التشكل فى صورة مهرجانات وأعياد ومواسم وخاصة فيما يتعلق بالنيل والحصاد والولادة والوفاة ، وما تزال هذه العادات سائدة ، وهى تختلف اختلافاً واضحا عن مفاهيم الإسلام وقيمه، فضلا عما تهيئ هذه المذاهب من إحياء (طقوس) لا يعرفها الإسلام ولا يقرها ، وهو الذى حرر البشرية منها ، فقد حرر الإسلام المسلمين من كل ما يتصل بالأحجار والحيوانات والأنهار ، ودعا إلى التوحيد الخالص المعارض لكل مظاهر الوثنية والشرك والتعدد جميعا ، وعن اتخاذ بعض الناس بعضهم أربابا ، كما حرر البشرية من عبادة الطبيعة (الشمس والقمر) وأعلن أنها مسخرة بأمر الله لخدمة الإنسان .

وتطلق كلمة الوثنية على مختلف العقائد التى لا تفرد الله تبارك وتعالى بالتوحيد، وتنسب الوثنية إلى الوثن (أى إلى عبادة الأحجار والأصنام)، وقد صف اليونان القدماء (الإغريق) بالوثنية ، كما وصف بها أهل الجزيرة العربية على اختلاف فى المدى والفهم ، وكانت الوثنية اليونانية عريقة ، لها أيدلوجية كاملة ، ولها فلاسفة أمثال أفلاطون وأرسطو، وشعراء أمثال أسخيلوس وسوفوكليس ، والعقائد الوثنية متعددة منها تأليه الطبيعة ، أو جزء منها كالشمس والقمر أو بعض أنواع الحيوان أو تأليه البشر : فردًا أو أسرة أو جماعة ، وذلك كعبادة الملوك والأسر الحاكمة عند بعض الأمم القديمة كالمصريين القدماء، أو الحديثة كاليابان والهنود، وكعبادة الأنبياء والأبطال والقديسين والأولياء ، ولذلك فقد حرص الإسلام على الاقتصاد فى تكريم الأبطال والصالحين ، حتى لا تتحول هذه الطقوس مع الزمن إلى نوع من العبادة ، وقد حرص الإسلام على عدم إسباغ أى نوع من أنواع التكريم

المبالغ فيه للأبطال أو الصالحين ، حتى لا يتحول مع الزمن إلى مثل ما تحولت إليه تقاليد اليونان ، الذين كانوا يقولون بتعدد الآلهة ، فكل إله يمثل قوة طبيعة خاصة يديرها ويتولى أمرها ، ومن ذلك زيوس إله الرعد والبرق، وهو كبير الآلهة عندهم، وديميتر إله الأرض والخصوبة ، وأفروديت إلهة الجمال ، وأبولو إله الشمس ، ونبتون إله البحر وهكذا . وكانوا لا يفرقون بين طبيعة الآلهة وطبيعة البشر ، إذ يجوز عليها ما يجوز على البشر من بغض وحقد وقسوة وشره وطمع وجبن وحب للانتقام ، وكانت آلهتهم لا ترى بأسا من اغتصاب زوجات الآلهة الأخرى وتتصف بالأخلاق الشريرة .

وقد هاجم الإسلام الوثنية وهاجم تعدد الآلهة ، ودعا إلى عبادة (الله) الواحد الأحد . وتختلف الوثنية العربية عن الوثنية الإغريقية فى أنها لم تكن وثنية قائمة بذاتها ، وإنما كانت انحرافًا عن التوحيد الخالص الذى دعا إليه إبراهيم عليه السلام ، فقد اعتنق معظم العرب دين إبراهيم والحنيفية، ولكنهم مع تقدم الزمن ومع تفرقهم فى الأقطار كانوا يحملون معهم بعض حجارة الكعبة ويتبركون بها ، ثم حولوا هذه الأحجار إلى أصنام وأوثان ، ومن هنا اختفى التوحيد وبرزت عبادة التماثيل والأصنام وقدمت لها القرابين ، ومن وثنية العرب عبادة النجوم .

ولا ريب أن الدعوة إلى إحياء ما قبل الإسلام من وثنيات يستهدف إشاعة الفكر التلمودى ، الذى شكله اليهود خروجا عن مفهوم رسالة موسى عليه السلام ، واستهدافا لتحقيق غاية معروفة هى الاستعلاء بالجنس والعنصر إلى امتياز معين ، وقد سجل الباحثون أن الماسونية قد أعادت تشكيل الفكر البشرى الوثنى السابق للإسلام كله ، وأعادت صياغته من جديد واعتبرته تراثا للبشرية تدعوا إليه وتزدهى به ، وأن هذا العمل هو أسلوب من أساليب السيطرة الخفية . وفى عدد من كتبها التعليمية مثل كتاب (الآداب والعقيدة) يبدو هذا العمل الخطير فى: إحياء الأساطير والوثنيات وخرافات قدماء المصريين والكلدانيين والهنود والفرس والعبرانيين واليونان ، وما يتصل بها من رموز كالخنفساء الذهبية والحية والسمكة والثور يحمل فوق قرنيه الشمس ، والثور المجنح وأبى الهول والأهرامات والمثلثات والمربعات والدوائر والأعداد المقدسة (كذا) كالعدد ٣ ، ٧ ، ٩ وما يتصل بذلك من طقوس متحجرة ومراسم ، فضلا عن السحر فإنه باب وحده ، وقد حرصت التلمودية على هذا التراث كل الحرص، وعملت فى كل العصور على تجديده،

وعلى بعثه فى صورة أو أخرى ، وعلى تلقينه فى المحافل السرية ، وخاصة ما يتصل بالمهابهارتا والرمايانا والزاندفستا والإلياذة وتجيء التلمودية والمشنا على رأس الكتب ، ومفهومها القائم على العنصرية على رأس المفاهيم ، وتلك هى أخطر خلفية وراء إحياء ما قبل الإسلام .

٢ ـ الدهرية :

ولقد كانت الدهرية واحدة من أخطر الدعوات الهدامة التى أذاعها النفوذ الأجنبى فى البلاد الإسلامية كوسيلة من وسائل تدمير مقومات الإسلام وقيمه الأساسية ، فقد كان من أبرز أهداف الاستعمار القضاء على القوة الأصيلة التى قام عليها الإسلام ،وهى التوحيد، فنشر فى كل مكان حل فيه مفاهيم المادية والدعوة إلى القول بمعارضة وجود الخالق وأن الكون طبيعى وجد اعتباطا ، وقد عرف هذا المذهب بالتبشيرية نسبة إلى كلمة الطبيعة فى اللغات الأجنبية (Nature وقد برزت هذه الدعوة بصورة خطيرة فى[٨٨])، الهند حيث نشرها الإنجليز بين المسلمين ، وتنبه لها السيد جمال الدين الأفغانى فوضع رسالته المعروفة (الرد على الدهريين التى صدرت عام ١٨٨٥ وترجمها الشيخ محمد عبده) وقد صور هدف هذه الدعوة حين قال : النيتشر اسم الطبيعة، وطبيعة النيتشر هى تلك الطريقة الدهرية التى ظهرت ببلاد اليونان فى القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح ، ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان ووضع أساس الإباحة والاشتراك فى الأموال والإبضاع بين الناس عامة ، وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا ، وبالغوا فى السعى إليه ، وتلونوا لذلك فى ألوان مختلفة وتقلدوا فى مظاهر متعددة ، وكيفما وجدوا فى أمة أفسدوا أخلاقها وعاد عليهم سعيهم بالزوال .

« وأيما ذهب ذاهب فى غور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة ، تجلى له أنه لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية الإنسانية ، إذ لا ريب فى أن الدين مطلقا هو سلك النظام الاجتماعى ، ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين ألبتة ، وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان ، وطرح كل عقد دينى ، أما عدم شيوع هذه الطريقة وقلة سلاكها مع طول الزمن على نشأتها فسببه أن نظام الألفة الإنسانية ـ وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية ـ كانت له الغلبة على أصولها الواهية وشريعتها الفاسدة » .

وقد عرف أن الدهريين هم منكروالأديان السماوية ، وأنهم عشرة مذاهب : الأبيقورية ، الارتقائية ، المزدكية ، الباطنية ، أتباع فولتير ، جان جاك روسو ، والموريون ،

النفعيون ، المدلسون ، الماديون . وقد وصفها الدكتور صلاح الدين السلجوقى بقوله : إن الدهرية هى حكومة الغرائز والعقد النفسية وتشاء أى الدهرية أن يعم الذل والهوان والخوف والإرهاب والتفرقة والكراهية ، وإن قبيلا من هذه الطائفة عملوا على إخفاء مقصدهم الأصلى وهو الإباحة والاشتراك ، واكتفوا فى ظاهر الأمر بإنكار الألوهية وجحود يوم الدين : يوم العرض والجزاء .

وأبرز مفاهيم الدهرية :

١ ــ إنكار وجود الخالق ، والقول بأن الكون بلا إله ولا صانع .

٢ ــ قولهم : إن الدهر قديم .

٣ ــ إنكار البعث والإعادة .

٣ ــ الباطنية :

كذلك فقد أحيت قوى التغريب والغزو الثقافى لخدمة النفوذ الأجنبى مفاهيم الباطنية القائمة على الرفض والتعطيل وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث والقول بأن للقرآن والأحاديث بواطن تجرى مع الظواهر مجرى اللب من القشر .

وقالوا : إن اللغة والأدب علوم لا تراد لنفسها بل لغيرها ، وقد قامت دعوتهم على أساس التأويل : تأويل آيات القرآن ، وقالوا إن الشرائع تلزم العامة دون الخاصة ، وذلك بهدف اقتحام مفهوم الإسلام الصحيح ، والخروج عليه بالدعوة إلى رفض الفرائض ، وإباحة المحظورات لأوليائهم ، وقد أولوا الصلوات الخمس وصيام رمضان وفريضة الحج .

وقد احتضنت الباطنية آراء مزدك فى شيوعية النساء والأموال ، وقالت الباطنية : بإنكار الميعاد والإباحة المطلقة ، واستباحة المحظورات، وإعطاء بعض الرؤساء العصمة . وقد قامت آراء الباطنية على أساس الفلسفة اليونانية وتعاليم مزدك وزرادشت ومانى ، واتخذت لها ستاراً من الولاء لبعض الأسماء اللامعة ، واتخذت من الشعوذة والتقشف وسيلة لها ، واستهدفت من وراء ذلك كله استعادة دولة الأكاسرة ، وقد عمدت إلى الهدم عن طريق تحطيم عقيدة الإسلام ، وإثارة الشكوك فيه ، وقد ساعدهم على نشر تلك الآراء جماعات من إخوان الصفا والشعراء المجان وبعض الشخصيات المنحرفة ، مثل ابن المقفع وحيدر بن كاوس .

وقد أعادت قوى الغزو إحياء هذا الفكر فى العصر الحديث ؛ يقول السيد أبو الحسن الندوى : أدرك الباطنية الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات الدينية ومعانيها أساساً تقوم عليها الحياة الإسلامية والهيكل الفكرى والعلمى فى حياة المسلمين ، هذه الصلة تدين الوحدة الدينية والفكرية التى يمتاز بها المسلمون بماضيهم ومنابعهم الصافية ، فإذا انقطعت هذه الصلة بين الكلمات والمعانى ، وأصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص ومفهوم معين أو تسرب الشك إليها ، أصبحت هذه الأمة فريسة كل دعوة وفلسفة وسا غ لكل واحد أن يقول ما يشاء ، وقد وصفت الباطنية بأنها ثورة على النبوة المحمدية ، وأن هدفها الصحيح هو تدمير دولة الإسلام .

ولقد قامت الفلسفة الباطنية أساسا على الإلحاد فى العقيدة والإباحية الأخلاقية ، ومن خلال الفلسفة الباطنية قامت دعوات عديدة ، ولم تزل كلها تعتمد الفلسفة اليونانية والفلسفة الغنوصية معا أساسًا لها، وخاصة الأفلاطونية المحدثة ، وجرت كلها على التأويل الفلسفى والاستناد على مفاهيم المجوسية القديمة ، وهى بذلك تخالف مفهوم الإسلام مخالفة تامة ، وتعارضه معارضة كاملة . فليس فى الإسلام وسيط بين الله تبارك وتعالى والعباد، ولا إنسان له صفة العصمة إلا رسول الله ﷺ المؤيد بالوحى ، والذى وصفه ربه بأنه بشر ورسول وليس لعلم الله وريث خاص ، وليس هناك قانون يلزم المسلمين غير الشريعة الإسلامية ، التى جاء بها القرآن والتى اكتملت قبل أن يختار الرسول الرفيق الأعلى ، وقد فصل الإسلام تماما بين الألوهية والبشرية والنبوة ، فلا يمكن أن يرقى الإنسان إلى مرتبة الألوهية .

محاولات لإحياء التراث الفلسفى الباطنى القديم :

قامت مفاهيم النسك والزهد وتزكية النفس من خلال مفاهيم القرآن الكريم ، وبناء عقيدة الأخلاق التى تمثل الركيزة الثالثة فى عقيدة الإسلام : شريعة ـ معاملات ـ أخلاق، وقد عرفها المسلمون من خلال سيرة الرسول ﷺ ، ومن مناهج التربية الإسلامية الأصيلة، غير أنه بعد أن ترجمت الفلسفات اليونانية والفارسية والهندية دخلت مفاهيم زائفة على عقيدة الأخلاق الإسلامية ، وأبرز هذه المفاهيم الوافدة :

وحدة الوجود والاتحاد والحلول والإشراق .

وقد عمدت الدعوات الهدامة المستحدثة إلى إبراز هذه السموم وإثارتها، والدعوة

إليها على نحو يرمى إلى تزييف مفهوم الإسلام ، فى مواجهة ما قرره المسلمون القدامى ، من قول أمثال الجنيد وغيره :إن مذهبهم مقيد بالأصول ــ الكتاب والسنة ــ وهويرى فى حدود الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن يدّع مع الله حالة تخرجه عن حد علم الشرع فلا نقر به .

وحدة الوجود :

وأخطر ما تحمله فكرة وحدة الوجود من مخالفة للعقيدة الاسلامية :ــ عقيدة التوحيد الخالص الذى أنزل الله بها رسله وكتبه ــ هو أنها تقول بتأليه المخلوقات ، واعتبار الكون هو الله ــ جل وعلا ــ بينما يفرق الإسلام بين الله الخالق الذى ليس كمثله شىء ، وبين الكون المخلوق ، فالإسلام يقرر أن الموجود اثنان : واجب الوجود وممكن الوجود؛ فواجب الوجود هو صانعه الواحد الفرد الصمد ، وممكن الوجود هو هذه الكائنات التى ندركها بحواسنا الخمس مباشرة .

أما أصحاب مذهب الوجود فيقولون : إن كليهما واحد ، ومعنى هذا أن الكون هو الله وهو مفهوم غير أصيل فى الفكر الإسلامى ومستمد من فلسفات أخرى خرجت على مفهوم التوحيد الخالص ، الذى أنزل الله تبارك وتعالى به الأديان والرسل جميعا، واستبان على أكمل وجه فى الإسلام وكتابه القرآن .

فقد أنكر الإسلام عقيدة الاتحاد والحلول وأنكر حلول الخالق فى المخلوق ، أو استغراق المخلوق فى الخالق ، وهو يميز طبيعة كل منهما ، ولا يقبل الإسلام وحدة الوجود لأن فيها انتقالا من عقيدته الأصلية: لا إله إلا الله، إلى ما يقوله بعض الفلاسفة : لا موجود في الحقيقة إلا الله. وسياق كل منهما ينتهى إلى نتائج مختلفة أشد الاختلاف عن النتائج الأخرى ، والمعروف أن نظرية وحدة الوجود هى فكرة ترددت أو الأمر فى الفلسفة اليونانية ، وهى تتعارض مع الفطرة التى جاء بها الإسلام حاثا أتباعه على التفكير فى خلق الله ناهيا عن التفكير فى ذات الله ، مقرراً أن الوجود أو الكون لا يمكن أن يكون موجودا بنفسه ، ولا ريب أن كثيرا من الباحثين ــ دون هدى من معطيات الوحى والرسالات المنزلةــ قد جروا أشواطا طويلة وراء الحقائق الكونية ، فلم يهتدوا ، وكانت غايتهم :هى إدراك الله تبارك وتعالى وإدراك ما وراء الطبيعة ، بالحواس القاصرة وبالعقل البشرى المحدود ، غير مقدرين أن هذه الأدوات من حس وعقل هى فى ذاتها قاصرة عن الوصول بهم إلى هذه الغاية الكبرى ، التى لا تتحقق إلا عن طريق الإيمان برسالة الله ووحيه ، الذى أنزله إلى

أنبيائه ، والتى تكفل للإنسان الطمأنيينة التامة فى هذا المجال ، وتغنيه عن هذه المحاولات التى لا تنتهى إلى شىء ما ، والقول بأن الله ــ جل فى علاه ــ هو الكون ، إنما يمثل فهما ماديا خالصا لذات الله تبارك وتعالى ، يتعارض مع العقل ومع الفطرة ومع ما أودعه الله فى رسالة الدين الحق الموحى به الذى أراد به سبحانه أن يطأ من النفس الإنسانية فى هذا المجال حتى لا تكون فى حاجة إلى البحث الذى لن تصل به إلى شىء ، وأن يفسح لها طريق التأمل والفكر فى المجال الآخر ؛ مجال العمران واكتشاف أسرار المادة ، وما أودعه فى الأرض ، والماء والجبال من معطيات وكنوز وهبها للإنسان ، وحرضه على البحث عنها واستخلاصها، وذلك حسبما صوره الرسول الكريم « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فتهلكوا » .

إن أخطر ما تصل إليه نظرية وحدة الوجود من دعوى القول بأن الكون هو الله ، هو إسقاط التكليف وتدمير المسؤولية الفردية والالتزام الأخلاقى ، فحيث إن مذهب وحدة الوجود فى ذاته لا يتفق مع الدين الحق المنزل الذى يقول بالتفرقة التامة بين الله والعالم ، ولا يتفق مع العقل السليم الذى لا يقبل أن يكون الله ــ جل فى علاه ــ هو العالم بما فيه من حيوان وجماد ؛ فإن القول بوحدة الوجود يهدد قيمة كبرى من قيم الإسلام : هى الأخلاق .

فالقول بوحدة الوجود يتعارض مع قاعدة أخلاقية الحياة التى تقوم على أساس مكين ، فما دام الله ــ تعالى عما يقولون علوا كبيرا ــ قد اتخذ الإنسان مظهراً له ، فكيف يستقيم أن يكون هذا الإنسان نفسه هو المسؤول عن نتائج عمله ؟ ومن هنا تظهر تلك الدعوة الخطيرة التى تستهدف معارضة الإسلام فى صميم أصوله ، وهى إسقاط التكاليف أو إباحة ما حرم الله ، أو تجاوز حدود الله ، ولا شك أن أقوال القائلين بوحدة الوجود تخالف مخالفة أكيدة عقائد الإسلام القطعية المعلومة من الدين بالضرورة . ونحن فى حاجة إلى أن ننبه إلى أخطاء المصطلحات التى تقول : الكل فى واحد والواحد فى الكل ، أو نقول : لا موجود إلا الله وأن جميع الممكنات مظاهر له ، فهذا كله يتعارض تعارضا كاملا مع التوحيد كما جاء به القرآن وفهمه المسلمون .

وإذا كانت فكرة وحدة الوجود تعارض الوحى والعقل والفطرة جميعا فإن عدداً من الفلاسفة اعتبروها كذلك حتى قال شوبنهور: إن وحدة الوجود ليست إلا صورة مهذبة لمذهب الإلحاد ؛ لأن حقيقة مذهب الوجود تنحصر فى أنه يهدم التعارض الثنائى الموجود

بين الله والكون ، وأنه يقرر أن الكون موجود بفضل قواه الباطنة الخاصة به ، فالمبدأ الذى يقول به أصحاب وحدة الوجود من أن الله والكون شيء واحد ، إنما هو وسيلة مهذبة للاستغناء عن الله أو تعطيل عمله ، والمعروف أن الفلاسفة اليونان من لدن طاليس أول فلاسفتهم إلى أرسطو يقولون باندماج الله فى العالم أو العالم فى الله .

وفى العصر الحديث يفاخر عدد من التغريبيين ودعاة الغزو الثقافى بأنهم يؤمنون بهذه العقيدة الفاسدة ، ويروجون لها بين الشباب المسلم .

الحلول :

ويخالف مفهوم الحلول عن مفهوم وحدة الوجود ، فحيث يقول مذهب وحدة الوجود بالوحدة الذاتية لجميع الأشياء مع تعدد صورها فى الظاهر ، وهو زيف لا يقره الإسلام ؛ فإن مذهب الحلول يقول بوجود حقيقتين مختلفتين : الإلهية والبشرية وقيام الأولى بالثانية تحت ظروف خاصة ، ويقرر لويس ماسنيون أن الحلول له طابع مسيحى ، وله أصول يونانية وهندية ، وأنه مهدم لوحدة الله حسب رأى القرآن .

ويقول الإمام الغزالى : إن الحلول لا يمكن تصوره بين عبدين فكيف يمكن تصوره بين الرب والعبد ؟ ولئن سلّم أحد بإمكان ذلك إلى نفس واحدة فكيف يسلم به لجميع النفوس؟ وعندئذ يصبح العالم كله آلهة ويقول : فمن المحال إذن أن يحل الله ــ جل شأنه ــ فى النفس وأن ينطبع منها انطباع الخمر فى اللبن ، فإن ذلك من صفات الأجسام . ويتحدث الباحثون عن تنزه الله جل شأنه عن الحلول ، وأن الحلول محال على الله تعالى لأسباب كثيرة ، ذلك لأن القديم يختلف عن الحادث لاختلاف الماهية فى كل منهما ، وهذا الاختلاف يوجب استحالة حلول القديم فى الحادث ، ثم إن الله واجب الوجود وهذا الوصف ينفى الحلول ، لأنه فى حالة حدوثه يصبح الحال تابعا لما حل فيه ، كما يصبح معلولا هذا المحل ومتأثرا به ، بل إنه ليصبح فى غير الإمكان تصور الحال إلا بتصور المحل ، إذن ينتفى الحلول فى هذه المرة كما استحال فى الأولى ثم إن الله واجب الوجود ، والواجب ليس عرضا وليس جوهراً ، فإذا كان الحلول حلول عرض فى جوهر ، فلا يمكن بالنسبة لله تعالى لأنه ليس بعرض ، وإذا كان حلول جوهر فلا يمكن أيضا لأن الله تعالى ليس بجوهر .

وقد كانت كتابات الحلول ووحدة الوجود وغيرها من كتابات عصور الضعف والتخلف ، وقد التفت إليها المستشرقون وحاولوا إحياءها وإذاعتها ، وذلك لخلق منطلق

لدعوات الإباحة المستحدثة ، وخاصة الوجودية والفردية وغيرها ، ومحاولة لتحطيم قانون أصيل هو : قانون البعث والجزاء ، وكذلك لترديد الدعوة إلى إسقاط التكليف والالتزام الأخلاقى ، وذلك كله مقدمة لإشاعة الانحلال الذى يستهدف التأثير فى فريضة الجهاد فى سبيل الله . والمعروف أن الاعتقاد بالحلول يسقط التكليف والالتزامات وحدود الله ، ويدفع المسلمين خارج نطاق قيمهم الأساسية ، ويدمر مقوماتهم النفسية فى الاندفاع نحو الترف والانحلال والفساد والشهوات ، عن طريق إغذاء الغرائز ، أو الاندفاع نحو الانسحاب من الحياة كالرهبانية ، ومعارضة مبدأ الروح وتكوين الأسرة ، والزهادة عن بناء الحياة ومجاهدة أهواء المجتمعات .

الاتحاد :

وليست فكرة الاتحاد بأقل من فكرتى وحدة والوجود والحلول اضطرابا وفسادًا ، ذلك لأن قول القائل : (إن العبد صار هو الرب) كلام يتناقض مع نفسه ، بل ينبغى أن ينزه الرب سبحانه أن يجرى اللسان فى حقه بأمثال هذه المحاولات ، وطريق البرهنة على فساد ذلك يورده الإمام الغزالى فى ثلاثة احتمالات :

أولا : إما أن تظل كل ذات من الذاتين موجودة .

ثانيا : إما أن تفنى إحداهما وتبقى الأخرى .

ثالثا : إما أن يفنيا معا .

وفى الحالة الأولى : لا يكون هنا اتحاد ، وفى الثانية : كيف يمكن الزعم بأن هناك اتحادًا بين موجود ومعدوم ، وفى الثالثة : لا يكون هناك محل للحديث عن الاتحاد بل الأولى أن نتكلم عن الانعدام ، فالتناقض واضح فى جميع الاحتمالات .

ويقال : إنه كما تنزه الله تبارك وتعالى عن الحلول فهو يتنزه عن الاتحاد ، لأنه لو حدث أن اتحد واجب الوجود بغيره نتج عن ذلك حالتان : إما أن يبقيا موجودين معا ، وإما أن يدركهما العدم معا ، ويخرج منها ثالث ، أو يدرك العدم أحدهما ويبقى الآخر . ففى بقائهما موجودين فهما إذا فى هذه الحالة اثنان متمايزان متباينان . وهذا التمايز ينافى الاتحاد ، لأن الاتحاد يلزم أن يصبحا واحدًا، وفى عدمهما معا يبطل الاتحاد ، لأن المعدوم لا يتحد بمعدوم، وفى حالة عدم أحدهما فقط فإن الاتحاد لم يتحقق أصلا (١) .

---

(١) عن بحث للأستاذ البشبيشى .

وهناك دعوات أخرى يجب الحذر منها، وهى معارضة لمفهوم التوحيد الخالص : أبرزها : التناسخ ، والنرفانا ، والإشراق .

فنظرية التناسخ من الفكر الوثنى القديم الذى جرى إحياؤه لتهديم مفهوم الإسلام الصحيح ، وهى نظرية تتعارض مع مفهوم الفطرة والعقل والدين ، وهى لا تطابق الحقيقة الثابتة عن مسؤولية الإنسان والتزامه الأخلاقى ، فضلا عن سذاجة القول بانتقال الروح من بدن إلى بدن ، وقد كشف العلماء عن خدعة استطاعة النفس فى الانتقال من جسم إلى جسم ومن كائن إلى كائن ، وإن ذلك يتعارض مع احتفاظ النفس بفرديتها .

أما النرفانا : فهى ليست فى حقيقتها وجودا إيجابيا ، ولكنها تخلص من الوجود المؤلم بمعنى الفناء والانفصال عن العالم وحركة الحياة ، وهى تتعارض مع مفهوم الإسلام . وقد صدق الدكتور عبد الرحمن مرحبا حين قال : إن الفلسفة الهندية قد حطمت الإنسان وهى تدعى تأليه الإنسان .

أما الإشراق : فهو أحد مذاهب الضلال القائم على أن مصدر الكون هو النور ، وهو فى مفهومه خارج عن مفهوم الإسلام بعيد عن جوهره متعارض مع التوحيد الخالص ، وقد كانت فكرة النور والظلام من مذاهب المانويه والمزدكية والباطنية ، وقد حاولوا تجديدها فى العصر الحديث .

ثالثا : هدم الثقافة الإسلامية الجامعة

كان هدم الثقافة الإسلامية الجامعة القائمة على التوحيد الخالص من أكبر أهداف الغزو الفكرى والتغريب ، وقد كان المدخل الأول إلى ذلك هو إشاعة نظرية دارون التى هى أساس النظرية المادية ، وهى نظرية قامت على الفروض وأعلنت منذ اليوم الأول نقصها بوجود حلقة مفقودة لم يصل إليها دارون ، فى محاولة للقول بأن الإنسان والحيوان من مصدر واحد ، وقد لجأ إليها حين عجز عن التوصل إلى فهم استقلالية العناصر ، التى كشفت عنها الحفريات بعد ذلك بمائة عام حيث تأكد أن الإنسان خلق خلقا مستقلا وأنه خلق تاما يمشى على قدمين منذ يومه الأول .

ولقد سارعت القوى المتخفية وراء النفوذ الأجنبى ، والراغبة فى هدم إنسانية الإنسان التى أكدها له الحق تبارك وتعالى ، بإشاعة هذه النظرية فى وسط موجات متلاحقة تتحدث عن حيوانية الإنسان .

ولقد تبين أن دارون فرض فروضا ولم يقدم حقيقة علمية ، وأنه أفسح لنفسه بما أسماه: الحلقة المفقودة ، التى كشفت بعد ذلك عن استقلالية الجنس البشرى عن الأجناس الأخرى ، لقد اتخذت نظرية دارون مدخلا إلى الفلسفة المادية وإلى القول بالتطور المطلق، وتعرض هذا المفهوم الذى قام فى دائرة البيولوجيا لكى يكون مفهوماً عاما فى مجال الاجتماع فعلت الصيحة إلى التطور على نحو جاد ، يرمى إلى القضاء على مفهوم الإسلام الأصيل الجامع بين الثوابت والمتغيرات .

ولقد كان من الضرورى أن يكشف علماء المسلمين موقف الإسلام من نظرية دارون جملة وتفصيلا : ذلك أن القرآن الكريم قد أوضح لنا كيف خلق الله تبارك وتعالى الإنسان الأول ومم كان خلقه ؛ خلقه من صلصال من حمأ مسنون .

وفى معرض الأطوار التى يمر بها خلق الإنسان يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **يأيها الناسُ إن كنتمْ فى ريبٍ من البعثِ فإنا خَلَقْناكم من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم من علقة ثم من مضغةٍ مخلقةٍ وغير مخلقةٍ لنبين لكم ونقر فى الأرحامِ ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدّكم** ﴾ وهذه الآية وآيات أخرى تبين أن الإنسان خلق نوعا مستقلا وليس متطورا من نوع آخر من أنواع الحيوانات، وقد جاءت الحفريات لتؤكد

ما قاله القرآن الكريم وتشهد بأن الإنسان خلق مستقلا ، وبذلك سقطت هذه النظرية تماما .

ومن خلال نظرية دارون استعلى مفهوم التطور فى الفكر الغربى وهو مفهوم قام على إنكار وجود الخالق ، يرى أن نشأة الكائنات الحية هى نشأة طبيعية من غير خالق ، وأن كل شيء يتطور وأنه لا يوجد شيء ثابت على الإطلاق ، وأن التطور يجعل كل طور أفضل من الطور الذى سبقه ، وقد كان واضحا أن صياغة النظرية على هذا النحو هى محاولة من محاولات إنكار عنصر الثبات الأصيل القائم فى الكون والوجود ، ومعارضة مفهوم الدين الحق والنواميس الأساسية التى قام عليها العالم ، وقد كشف كثير من العلماء عن فساد هذه النظرية الفلسفية ، التى لا يقرها العلم التجريبى ، وقد حاول دعاة النظرية المادية إنكار قيم الأخلاق الثابتة والقول بأنها متغيرة مع الأزمنة والعصور ، وهم فى ذلك ينظرون إلى العادات والتقاليد ، لأن الفكر الغربى ينكر أساساً أن الأخلاق جزء من العقيدة .

العلمانية :

ومن خلال الخلاف بين الكنيسة ورجال العلم فى الغرب نشأت فكرة العلمانية ، كرد فعل لمعارضة الدين لمنجزات العلم ، واختلاف ما وصل إليه مع ما جاء فى الكتب القديمة ، وكلمة علمانى ترجمة لكلمة SACULAR ومعناها لا دينى ، وينصب المصطلح على مفهوم واضح هو : فصل الدين عن الدولة ، وهو هدف واضح روجت له القوى الاستعمارية بهدف حجب نظام الإسلام عن التطبيق فى المجتمعات ، وقد كان للعلمانية فى الغرب هدف آخر ، هو تمكين غير المسيحيين من السيطرة على الحياة السياسية والاجتماعية ، بإعلاء القومية بديلا عن الدين ، وبذلك تحطمت الحواجز التى كانت تحول دون تسنم اليهود مراكز الصدارة فى المجتمعات الدولية ، وعزل مفهوم الدين ــ بمفهومه المسيحى ــ عن التربية والتعليم والسياسة، وتحطيم السدود الأخلاقية التى تحول دون استشراء الإباحة والإلحاد . وقد كان واضحا أن طرح هذه المفاهيم فى أفق الإسلام والمجتمع الإسلامى فيه تجاوز كبير ؛ فالعلم نشأ فى أحضان الإسلام ولم يقع خلاف فى بلاد الإسلام بين العلم والدين، والمسلمون يعتبرون الأخلاق جزءاً من الإسلام لا تنفصل عنه، ولذلك فإن هذه المحاولة كانت خطيرة وماكرة ، لتستهدف إخراج المجتمع الإسلامى من النظام الربانى الذى تشكل عليه منذ خمسة عشر قرنا ، ولقد كان منهج الإسلام بطبيعته مرنا قادراً على تقبل المتغيرات وتكامل القيم .

رابعا : هدم مفهوم الإنسان

بالترويج لمفاهيم مدارس العلوم الاجتماعية المادية

كان من أخطر محاولات التيارات الوافدة هدم مفهوم النفس والأخلاق والاجتماع التى قررها الإسلام من خلال آيات بينات فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، وذلك بالترويج لمفاهيم مادية زائفة هى نتاج الفلسفة المادية ، التى تقوم على تصور الإنسان على أنه حيوان يخضع لشهوتى البطن والجنس ، وقد ظهرت مفاهيم العلوم الاجتماعية فى العقود الماضية من خلال سيطرة اليهود على الجامعات ، وطرح مفهوم مستمد من التلمود والبروتوكولات يرمى إلى هدم الإنسان وتدميره وإخضاعه للمطامع التى تجرى لتحقيقها القوى المسيطرة ، وقد انتقلت هذه المفاهيم إلى أفق الفكر الإسلامى عندما أصبحت علوما تدرس فى الجامعات ، بينما هى فى حقيقتها فروض من صنع عقل بشرى وظروف محدودة فى مجتمعات معينة كرد فعل لأوضاع سابقة عليها ، ومن هنا فإن من الخطأ النظر إليها على أنها حقائق علمية ، وفضلا عن ذلك فهى مخالفة تمام المخالفة لمفهوم الإسلام فى النفس والأخلاق والاجتماع التى تقوم على البعد الأخلاقى الأصيل ، وعلى تكامل القيم المادية والروحية ، وعلى عقيدة التوحيد الخالص ، إيمانا بالله تبارك وتعالى خالقا ورازقا .

إن أخطر ما فى النظريات المطروحة فى النفس والأخلاق والاجتماع أنها مادية صرفة، وأنها ترغب إلى تدمير النفس الإنسانية وأنها ترى أن مصدر تصرفات الإنسان هى الغريزة ، وأنها تعلى حيوانية الإنسان وتنكر روحانيته ، وأنها تحاول بذلك كله أن تخلق صراعا عنيفا بين الأب والأم فى محيط الأسرة ، لهدم قوامة الرجل على المرأة وتحطيم قيادة الرجل للأسرة ، وهى بذلك كله تمثل جوهر الفكر التلمودى اليهودى الهدام لكل القيم ، وتستهدف خلق أجيال تعسة فاسدة منحلة لا تستطيع أن تقوى على حماية مقدرات الأمم ومقدساتها ؛ فالإنسان الذى كرمه الله تبارك وتعالى واستخلفه فى الأرض وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا ، هو فى هذه النظريات مهدر القيمة ، حيوان مادى ، لا تهمه إلا الغريزة، ولا تحكمه إلا لقمة العيش ، ومجبر لا إرادة له ، وعاجز عن أن يختار لنفسه شيئا ، وإن الأسرة ليست فطرة ، وأن الدين غريب عنه ، فقد خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ولم ينزل من السماء .

وقد كان حقا علينا أن نعرف أبعاد هذه الخطة الخبيثة الماكرة ، وأن نؤمن بأن ليس كل ما يقدمه الفكر البشرى علما ولا خالداً ولا صالحا للبشرية كلها ، وأنه لا يزيد عن أن

يكون فرضيات لعقول بشرية قاصرة وفى وجه تحديات وظروف مختلفة ، وأن هذا الفكر ليس مطابقا لذاتيتنا الخاصة ولا لمجتمعنا ، ولأنه يتسم بسمة الإحساس الغربى بالاستعلاء العنصرى والتعصب الدينى أوالاستعمارى ، أو التصور الذى قام على فكرة الخطيئة الأصلية التى تصور الإنسان مذنبا طوال حياته .

إننا لكى نفهم هذه النظريات التى تدرس الآن فى الجامعات فى بلادنا الإسلامية على أنها علم وحقائق ، علينا أن نفهم أن هذه النظريات قد ثبت خطؤها وفسادها ، لقد تشكل الفكر الغربى من مصادر ثلاثة : هى الوثنية الهلينية والمسيحية الغربية والفكر التلمودى اليهودى ، وعندما انفصل الفكر الغربى الحديث عن الدين خلق تياراً مثاليا حاول به أن يستغنى عن الدين بقيم أخلاقية ، غير أن هذا التيار لم يلبث أن انحرف تحت وطأة التيار التلمودى المادى الذى غلب وسيطر واستطاع أن يستوعب الفكر الغربى إلا قليلا وتتمثل طبيعة الفكر الغربى فى التجزئة : تجزئة النظرة إلى الأمور بينما يتمثل الفكر الإسلامى فى (تكامل النظرة) فالفكر الغربى يفصل بين القيم ، فصل التعارض والمخالفة ، بينما يرى الفكر الإسلامى تكاملها ، ويقرر التوازن بينها لا التعارض ، ويتحدث الفكر الغربى عن الصراع بين القيم بينما يتحدث الإسلام عن التقائها والملاءمة بينها . هذا التعارض من طبيعة الفكر الغربى الأصيلة التى تعزل بين الدين والدنيا وفق قاعدة « ما لقيصر لقيصر وما لله لله» بينما يقرر الإسلام أن ما لقيصر وما لله هو لله تبارك وتعالى .

ولذلك واستمداداً من طبيعته الخاصة ومزاجه العام ، تستحيل عملية التكامل التى هى طبيعة أساسية للفكر الإسلامى المستمد من منهج القرآن الكريم والسنة النبوية ، حين يجمع بين الروح والمادة ، وحين يجمع بين المحسوسات والغيبيات . وبين الإلهى والبشرى . يجمع الإسلام بين تلك القيم فى تكامل ومواءمة وتوازن دقيق بناء على قاعدة أساسية ثابتة لا تتخلف هى : أن الإنسان نفسه مادة وروح خلقه ربه تبارك وتعالى من قبضة الطين ونفخة الروح ، ولقد هدى الإسلام الإنسان إلى سنن الفطرة وبين له أن طبيعة الإنسان قابلة للخير والشر ، وأن الطريق مفتوح أمامه إلى الهدى والضلال ، وأن الإرادة الإنسانية الحرة فى الاختيار هى وحدها موضع المسؤولية .

ومن هنا فإن هذه النظريات كلها تخالف طبيعة الإسلام الحقيقية كما رسمها خالقها وجاء بها الدين الحق ، فإذا أعلى جانبا من جانبى المادة أوالروح فلا ريب أنه سيصل إلى التمزق والضياع ولقد تمزقت المجتمعات التى عزلت نفسها عن الفطرة بالإغراق فى

الروحية، كما تتمزق اليوم نفس المجتمعات التى عزلت نفسها عن الفطرة بالإغراق فى المادية، وهما أسلوبان ضالان وبينهما طريق وسط جامع متكامل هو المفهوم الإسلامى للحياة .

ومن هنا كان خطأ المنهج الغربى الذى حاول أن يحاكم الإنسان بمفهوم العلوم المادية أو تجارب الحيوان على أساس مفهوم خاطئ بأنه مجموعة من اللحم والعظم والشهوات والأهواء ، وأنها جميعها يحكمها منطلق واحد هو الغريزة على النحو الذى قدمه فرويد أو المعدة على النحو الذى قدمه ماركس .

ومن عجب أن الفكر الغربى أخطأ مرتين فى فهم الإنسان ، عندما قرر أن الإنسان هو سيد الكون وأنه وحده الموجود فى الكون ، وأخطأ مرة أخرى من خلال الفلسفة المادية حين قال إنه حيوان خاضع لغرائزه وشهواته ، من خلال الطعام واللقمة ، وتتعارض النظريتان مع الحقيقة ، وتبتعدان عن المفهوم الصحيح فليس الإنسان وحده فى هذا الكون وليس هو الحيوان ، وإنما هو مخلوق كرمه خالقه وجعله مستخلفا فى الأرض ووكل إليه عمارتها بميثاق أمانة ومسؤولية فردية والتزام أخلاقى وليس هو حيوانا ولا خاضعا لغرائزه ، ولكنه وفق إرادته ، لأن يختار أحد الطريقين﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ وهنا مناط الأمانه التى وكل الله أمرها إليه والتى تقوم على الاختيار ، والإنسان بمفهوم الإسلام قابل للخير والهدى والحق مهيأ لذلك فى ضوء هداية الله له بالرسالة السماوية ، ومن هنا كانت حاجته إلى الوحى والنبوة .

أما الفكر الغربى فإنه يقول بعكس ذلك ، ويرى أن طبيعة الإنسان ليست فى حاجة إلى توجيه إلهى وأن الإنسان قد وصل إلى مرحلة الرشد فلم يعد فى حاجة إلى وحى السماء ، وهذا كله باطل تماما ذلك لأن الحضارة المادية قد قدمت إنجازات للإنسان فى المجالات المختلفة الخاصة بأسلوب العيش ، ولكنها عجزت عن أن تمده بأى تقدم فى مجال المفاهيم النفسية والروحية والأخلاقية ؛ لأنها أنكرتها أساسا ، ولم تعد تعتبرها ذات قيمة ما.

وفى مجال الإسلام يختلف الموقف عن الفكر الغربى فى دعواه التى تقول : بأن هناك صراعا بين الجسم والروح ، لقد ألغى الإسلام هذه الفكرة الزائفة ودحضها ، وكشف عن الحقيقة التى تقوم على أن الجسم والروح متكاملان وبذلك سقط مفهوم الرهبانية القائمة على الرياضة العنيفة وتدمير الجسد من أجل تحقيق الصفاء الروحى ، ومن

هنا فقد كانت نظرة الإسلام إلى الإنسان هى أكرم نظرة وأعلى وأشرف من مختلف فلسفات الفكر البشرى فى عهد طفولة البشرية ، نظر الإسلام إلى الإنسان نظرة قوامها التكامل بين الروح والجسد فجعلهما معا موضع التكريم ، ودعا إلى الاهتمام بالطهارة الحسية والنظافة والزينة .

وكان أخطر ما فى العلوم الإنسانية والاجتماعية مما طرحته عقليات مادية ماركسية تلمودية فى نفس الوقت (فرويد ـ ماركس ـ دوركايم ـ سارتر) هو بمثابة محاولة إخضاع الإنسان والإنسانية فى مجال النفس والأخلاق والاجتماع للمناهج المادية المطبقة على الحيوان ، وهذه تعجز أساسا عن أن تصل إلى نتائج صحيحة بالنسبة لمشاعر الإنسان وعواطفه وأخلاقه وتصرفاته .

وإذا كانت هناك قوانين لقياس الطبيعيات والرياضيات فإن هذه القوانين تعجز عن قياس العواطف والأحاسيس والمشاعر ، ويرجع ذلك إلى أن حرية الإرادة البشرية تتدخل فى الظواهر الإنسانية ، وتغير مجراها تغييرا يجعل من العسير إخضاعها لقانون علمى ثابت، وأنه إذا كانت القوانين الطبيعية عامة صادقة فى كل زمان ومكان ، فإن مقررات العلوم الإنسانية ترتبط بظروف شخصية وتاريخية متغيرة ، كذلك فإن الباحث فى مجالات العلوم الإنسانية لا يستطيع أن يتجرد من أهوائه وميوله ومصالحه وهو ينظر إلى موضوعه الذى يتصل بالإنسان من خلال عقيدته وثقافته وتقاليده ، ونحو ذلك من عوامل تؤثر على نزاهته وتجعله ذاتيا أو متأثرا بالعوامل الذاتية على عكس الحال فى العلوم الطبيعية.
وإذا أردنا أن نواجه النظرية الاجتماعية نجدها فى مقدم مفاهيمها تنكر حقيقة ثابتة هى أصالة قيام الأسرة منذ العهود البشرية الأولى ، والقصد هو تضحيه الأسرة من أجل قيام شيوعية المجتمع وفى المفهوم الأصيل أن الأسرة تكونت فى بداية البشرية ولم يتخل جيل من الأجيال عنها ، والقرآن الكريم يقرر أن الأسرة نظام اجتماعى أصيل :

﴿ يأيُّها الناسُ اتقَوا ربَّكم الذى خلقكم من نفسٍ واحداةٍ وخلق منها زوجَها وبثَّ منهما رجالاً كثيرا ونساءً ﴾

كذلك لا يعترف الإسلام بأى نظرية فى تطور العائلة على أساس أن المرأة كانت مشاعة فى عهد البشرية الأولى ثم تكونت العائلة بفعل عامل اقتصادى (وذلك ما تحاول بعض دراسات الانثروبولوجيا دسه وهو غير صحيح) وهكذا تجرى النظرية الاجتماعية المادية فى محاولة التشكيك فى أصل هذا النظام ، توطئة للدعوة إلى القضاء عليه، والنظرة

الصحيحة ترى أنه ربما غلبت هذه الدعوة مرة أو مرات على مدى التاريخ الطويل بحكم الاستثناء الذى يحدث لاستعلاء الباطل والشر ، ولكن الواقع أن هذه المحاولات كانت تتحطم بسرعة ، وتفشل فشلا ذريعا ؛ لأنها تعارض الفطرة وتيار التاريخ ، وبعبارة واحدة فإنه قد عجزت كل المحاولات التى جرت على مدى التاريخ للقضاء على الأسرة وسيظل نظام الأسرة ثابتا مكينا ؛ ذلك لأن الأصول الإنسانية التى يقوم عليها ليست من صنع الأفراد ولا هى خاضعة لما يريد الفلاسفة أو صناع الأيدلوجيات ، كذلك يكشف الإسلام زيف المفهوم الذى طرحه علم الانثربولوجيا ، والقائل بأن البشريه بدأت وثنية ثم عرفت التوحيد ، أو القول بأن الدين نظام اجتماعى قابل للتطور مثل الجماعة نفسها فى تاريخها من تشريع وأخلاق .

ذلك أن الحقيقة العلمية هى أن البشرية عرفت التوحيد بأول إنسان ، وهو آدم عليه السلام ، ومع أول نبى وهو نوح عليه السلام ، وأنها ظلت تتداول التوحيد والوثنية عصراً بعد عصر ، ولم يكن هناك عصر واحد خلا من التوحيد .

كذلك فإن الإسلام ليس دينا وضعيا يخضع لما تخضع له الأيدلوجيات من تحوير وتعديل وتطوير ، إنما هو دين موحى به من السماء وقد أحكمت آياته على نحو يجعله صالحاً لكل الأزمان والعصور والبيئات ، وأنه جاء على نحو من المرونة واتساع الأطر وملاءمة الفطرة البشرية ، ولذلك فهو لا يخضع لما تخضع له الأديان الوضعية .

١ ـ الأخلاق :

تقول النظرية الغربية فى الأخلاق : إن مبادئ الأخلاق ما هى إلا ظواهر اجتماعية تملى على الأفراد دون أن يكون لهم دخل فى بنائها ، أو فضل فى الإيمان بها . وتقول النظرية المادية إن الأخلاق: تختلف عن الدين ، وإنه لا صلة بين الدين والأخلاق ، وإن الأخلاق هى استجابة النفس إلى الوسط ، فإذا ما تغير الوسط تغيرت الأخلاق ، وإن هذا الوسط يتسع ويضيق باختلاف الزمان والمكان . كذلك تقول النظرية : إن الأمم ليست فى حاجة إلى الأديان ولكنها فى حاجة إلى الأخلاق وإنه يمكن الاستغناء عن الأديان اكتفاء بالضمير الإنسانى .

أما النظرية الماركسية فترى أن الأخلاق مثل السياسة والقوانين تخضع للأحوال الاقتصادية والظروف السياسية لكل مجتمع .

ومجمل قول الفكر الغربى بشقيه أن الأخلاق نتاج البيئة وأنها تختلف باختلاف الأمم والعصور ومتغيرات المجتمع ، ولا ريب أن هذه النظرية فى ضوء الفكر الإسلامى تبدو ساذجة قاصرة ومنشطرة فى فهم النفس البشرية ، ومضادة لحقائق التاريخ وسير الأبطال وحيوات الأمم وأنها ضد الفطرة ، ولا يقرها العلم ولا مفهوم الإسلام ؛ ذلك أن طبيعة الإنسان ثابتة لا تتخلق وأن الأخلاق جزء من الإسلام فالإسلام ، عقيدة وشريعة وأخلاق ، وأن هناك فارقا عميقا بين الأخلاق الثابتة المتصلة بالدين ، وبين التقاليد التى تتصل بالمجتمع وتتغير بالأحداث الطارئة .

ولما كان الإسلام هو أصل الأخلاق الإسلامية ، وهو يربط بين القول والعمل والقيمة والسلوك ، فإنه لا يقر هذه المفاهيم من حيث يقرر الإسلام أن الأخلاق قاسم مشترك على مختلف أوجه الحياة : سياسية واجتماعية وقانونية وتربوية ، وغاية الأخلاق فى الإسلام بناء مفهوم التقوى الذى يجعل أداء العمل الطيب واجبا حتما ، ويجعل تجنب العمل الضار واجبا محتوما ، ويجعل الخوف من الله أقوى من الخوف من القانون والعقوبات الوضيعة ويقرر الإسلام أن القيمة الأساسية ثابتة لا تتغير ، لأنها صالحة لكل زمان ومكان وأن الأخلاق والعقيدة والشريعة ليست من صنع الإنسان ، ولذلك فهى قائمة على الزمان ما قام الزمان ، وعلى اختلاف البيئات والعصور ، وأن الحق سيظل هو الحق لا يتغير ولايتبدل .

ولذلك فإن أبرز قواعد الإسلام ثبات القيم وبالتالى ثبات الأخلاق وإن الالتزام الخلقى هو المحور الذى تدور حوله القيم الأخلاقية ، فإذا زالت فكرة الالتزام قضى على جوهر الهدف الأخلاقى ، ذلك أنه إذا انعدم الالتزام انعدمت المسؤولية وإن انعدمت المسؤولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه، وفى الغرب أخلاق بلا التزام وفى الإسلام أخلاق ملتزمة وثبات القيم فى العقيدة الإسلامية يجعل ثبات الأخلاق قيمة أساسية تقوم على قاعدة مقررة بأن طبيعة الإنسان ثابتة لا تتخلق ، وقد جاء الحق ليقدم لها الضوء الكاشف والهدى الصحيح ، الذى يحفظها من القلق والتمزق والتشاؤم والحيرة واليأس ، وهى بغير هذا العطاء لا تستطيع أن تواجه الحياة . ولقد ذهب العلم الحديث فى منجزاته إلى آفاق بعيدة من المتاع المادى والرفاهية ولكنه ظل عاجزاً عن أن يعطى الإنسان لمحة سكينة أو نفحة طمأنينة ، إن الطبيعة الإنسانية لا تجد طريقها الحق إلا فى الاتصال بالله وفى التماس منهجه .

ومن هنا قرر الإسلام أن هناك قيمة ثابتة ليست من صنع الإنسان هى : الأخلاق ، وقيما متغيره لأنها مرتبطة بالناس والمجتمعات هى العادات والتقاليد ومن الخطأ الخلط بين الثوابت والمتغيرات من القيم الأصيلة الربانية ، وبين القيم التى صنعها الإنسان .

٢ ـ النفس :

ثم نصل بعد ذلك إلى ما طرحه المذهب الغربى الوافد فى مجال النفس ، وأهمها مذهب فرويد الذى لم يكن إلا مذهبا واحداً من عديد من المذاهب ولم يَكن أحسنها وإنما كان أبعدها عن الفطرة ، ومن هنا وجد من يدافع عنه ويسوق به الناس سوقا حتى سيطر سيطرة كاملة فى الجامعات وفى مناهج الأدب والقصة ، وفى دراسات التربية ، وبذلك حمل إليها أخطر المفاهيم التى كان لها أبعد الأثر فيما أصيب به المسلمون فى العصر الأخير من نكبة ونكسة

والحق أن نظرية فرويد لم تكن إلا مجموعة من الفروض التى استقاها هذا الطبيب النفسى من تجربته مع المرضى والشواذ والمصابين وليس مع الأصحاء والأسوياء .

وهذه النظرية فى مجملها ليست إلا وجهة نظر وفرضية مطروحة لتنظر ومع الأسف فإنها لم تثبت طويلا فى مجال التجربة ، وقال كثير من الباحثين إن فرويد أقرب إلى المتنبئين منه إلى العلماء ، وإنه يرمى بنظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمى أو الستار الواقعى ، وإنما تقوم فى أغلبها على الافتراض ثم على تصديق ما افترض ، فيبنى عليه وكأنه حقيقة علمية لا يأتيها الباطل ، وقد أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل أن الدافع الجنسى يأتى فى مقدمة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى ، ثم إن الدافع الجنسى يمكن أن يخضع للتربية حين يربَّى الإنسان على العفة فيصبح قادراً على ضبط دافعه الجنسى والتحكم فيه ، وبذلك تكون العفة أمراً ليس ممكنا فحسب بل ضروريا ، ويرى الباحثون أن نقطة الضعف الأساسية فى فرويد كعالم ، هى أنه اتخذ من دراسة نفسه وطفولته قاعدة للتعميم ، والوصول إلى قوانين عامة ، والفلسفة الفرويدية تتسم بالميكانيكية الجبرية ، وهى بذلك تعارض أبرز معالم الإسلام وهو إرادة الفرد التى هى مناط مسؤوليته ، وهى تنظر إلى الإنسان على أنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها إلا بالحيلة ؛ وقد أسرف فرويد فى إرجاع كل ظاهرة سلوكية إلى الغريزة الجنسية .

كذلك فإن فرضيات فرويد لم تكن موضع القبول من العاملين معه فى حقل علم

النفس ، بل على العكس من ذلك كانت موضع معارضتهم ، وقد رفض ادلر ويونج رأيه فى الغريزة الجنسية ، كذلك فقد كشفت الأبحاث التى أجراها الأطباء النفسيون عن فساد نظرية فرويد فى دعواه بأن تأديب الطفل يؤدى إلى العقد والعصيان وقد أثبتت التحاليل التجريبية فساد هذه الدعوى . وقال كثير من العلماء إن نظرية فرويد المستندة إلى أسس جنسية بحتة ، معول هادم لعقول الشباب ومخدر مميت لنفوس أبناء الأمة ويرى هؤلاء أن البيئة هى المسؤول الأول عما يصيب الإنسان من انحراف نفسى وعقلى .

وقد أشار البعض إلى أن دعوى فرويد بأن الحياة يحكمها الجنس على بطلانه علميا فإنما يرمى به فرويد إلى تحطيم القيم الأساسية التى جاءت بها الأديان وأول أهداف الماسونية، البروتوكولات ، الصهيونية ، التى تعمل على تدمير الشباب وقد دعت فى هذا السياق إلى إسقاط حفاظ الإنسان وغيرته وكرامته بإنشاء جماعات أندية العراة وغيرها .

أما الإسلام فإنه يقف موقفا واضحًا فى هذا المجال . فهو يعترف بالكائن البشرى كما هو ويحقق له رغبات جنسه وعقله وروحه ، كما يعترف بالنشاط الحيوى للإنسان ويسمح للفرد فى مزاولة هذا النشاط فى حدوده الطبيعية ، وهذا المفهوم السمح يحول دون كل ما يسمى بالكبت أو التمزق أو الضياع .

والإسلام يعمد دائما إلى إيجاد التوازن بين قوى الإنسان المختلفة ويحفظه دون أن يعتزل الحياة بالرهبانية أو يصرع نفسه فيها بالإباحة ، فالتوازن هو الذى يحقق للإنسان قدرته على أداء رسالته وممارسته لحريته ، دون أن يفقد المسؤولية الفردية باعتزالها ودون أن يعجز عن احتمال الأمانة بالانحدار عنها .

خامسا : هدم مفهوم الشريعة الإسلامية

عمد النفوذ الأجنبى إلى ثلاثة أعمال كبرى فى سبيل تدمير المنظور الإسلامى :

١ ـ السيطرة على التعليم وفرض المفهوم العلمانى الغربى عليه .

٢ ـ إقامة النظام الاقتصادى الربوى فى البلاد الإسلامية .

٣ ـ فرض القانون الوضعى وحجب الشريعة الإسلامية .

وكان حجب الشريعة الإسلامية عن البلاد الإسلاميه التى وقعت تحت الاحتلال من أخطرالأعمال ، فبعد أربع عشرقرنا من قيام الشريعة الإسلامية يوقف العمل بها ، ويفرض القانون الوضعى الأجنبى . ويقام نظام القضاء والمعاملات على أساس الأنظمة السويسريه والفرنسية حيث يقضى على الضوابط والحدود التى وضعتها الشريعة الإسلامية لبناء المجتمع فى مجال الأسرة والتعامل والأطعمة والشراب ، والعلاقات بين الرجل والمرأة وعلاقات التعامل المالى والاقتصادى ، حيث أقيمت محاكم مختلطة أجنبية فرض الاستعمار بها للأجانب أوضاعا خاصة فى التعامل معهم ، ومكن لهم فى النفوذ والسلطان بترويج الإقراض الربوى والإفساد الاجتماعى أن يحطموا ثروات أهل البلاد ويستأصلوها ، كما فرض النفوذ الغربى سلطانه السياسى بإقامة النظام الديمقراطى الغربى القائم على روح الصراع السياسى الحزبى بين طوائف الأمة وقيام التنظيمات السياسية وفق مفاهيم خادعة لا تمكن إلا للفئات التى حرص النفوذ الأجنبى من تمكينها من السلطة لتعمل لحسابه ، وتقضى على الفئات الوطنية المؤمنة بجهاد النفوذ الأجنبى .

نتائجها :

وقد كان للقوانين الوضعية إلى جانب نتائجها السياسية والاقتصادية أثرها الاجتماعى الخطير الذى أفسد المجتمعات الإسلامية وأشاع فيها روح الانحلال ، ومكن للجريمة والفساد وحال دون إقرار نظام الحدود الإسلامية الكفيلة بالقضاء على وجوه الشر والخطر ،

لقد طغى القانون الوضعى على الشريعة الإسلامية فى محاولة خطرية لتغيير بنية المجتمع الإسلامى ، وفرض مفاهيم القبول بالزنا والربا والفساد كظاهرة طبيعية مشروعة لا عقاب عليها ، وهى خطوة متتابعة مكنت للفساد الاجتماعى فى بلاد المسلمين ، وذلك لأن القانون الوضعى أدخل قيما وتقاليد تختلف اختلافًا كبيرا عن قيم مجتمع الإسلام

الأساسية ، فقانون العقوبات يعتبر الشذوذ الجنسى مباحا ، كذلك فإن موقع جريمة الزنا فى القانون يختلف عن موقعها فى الشريعة الإسلامية فالزنا ــ الوطء فى غير حلال ــ فالقانون أباح للمرأة أن تنحرف فتتصل بغير زوجها ، كما أباح لأى رجل متزوج أن ينحرف ويتصل بغير زوجته ولو فى منزل الزوجية ، فإذا اتصل بها خارج منزل الزوجية لا يسمى هذا العمل زنا ولا تثريب عليه ، فالاتصال الجنسى بالطريق الطبيعى أو الشاذ مباح فى القانون الوضعى ، ولم يتدخل القانون لحماية الأعراض إلا فى حيز ضيق جدا ليحمى العرض فيه ، والصورة الثانية فى الاعتداء على القاصر بالرضا فإذا بلغت الفتاة الثامنة عشرة كانت فى حل أن تبيع عرضها للناس ، إن القانون حمى مال هذه الفتاة إلى سن ٢١ سنة ، ولكنه لم يحم عرضها فكان لها أن تتصرف فى عرضها فى سن الثامنة عشرة فكأن المال أعز عليه من العرض .

إن المواد من ٢٦٧ إلى ٢٨٠ تقريبا من قانون العقوبات المصرى ، وهى التى تحكم جرائم الزنا وهتك العرض ، والتى وضعت فى أيام الاحتلال البريطانى قد بقيت إلى اليوم تفعل فعلها الخطير فى المجتمع المسلم ، وقد استهدف النفوذ الأجنبى بذلك وغيره القضاء على مقومات مجتمعنا الإسلامى وتغيير العرف الإسلامى ، القائم على القيم الأخلاقية المستمدة من أديان السماء ، وقد نقلت أساسا من القوانين الغربية ، التى وضعت لمجتمع غير مجتمعنا ولعرف غير عرفنا ، وفى ظل ظروف تختلف تماما ، فالمجتمع الإسلامى ــ كما يقول الدكتور على عبد الواحد وافى الذى نقلنا منه هذه الديباجة ــ يقدس العرض ، ويكرم العلاقة بين الرجل والمرأة ويضعها فى أعلى مكان ، ويرسم لها أرقى النظم وأكملها وأقدرها على حماية الأسرة والمجتمع ، ومن المسلم به أن القانون فى أمة من الأمم إنما يستمد مواده من قيم المجتمع وأخلاقياته وعاداته وأعرافه ، ولما كانت هذه القيم والأعراف فى المجتمع المصرى ، والعربى والإسلامى جميعا غاية فى الرعاية للفضيلة ، فإنه من الضرورى أن يكون القانون مستجيبا لروح المجتمع وطابعه وذاتيته ، وآية عجز هذه المواد عن الاستجابة لمجتمعنا أنها منذ ذلك التاريخ إلى اليوم ، وقد مضى عليها قرن من الزمان ، فإن النفس المسلمة لا تستسيغها ولا تقبلها ولا تجدها متصلة بها أو مستجيبة لها ، وقد تضمنت هذه المواد أنه لا عقوبة على جريمة الزنا ما دامت قد تمت برضا الطرفين ، ولا عقوبة عليها كذلك إذا كانت الزانية امرأة غير متزوجة ، وكذلك إذا كانت متزوجة وزوجها رضى بذلك ، أو رفع دعوى الزنا ثم تنازل عنها ، ومعنى هذا أنه لا عقوبة على الزنا ، والعقوبة كلها تنصب على الإكراه الذى صاحب الجريمة ، وهذا هو ما فرضته القوانين الوضعية

على المجتمعات الإسلامية التى تعرف كرامة الخلق وتؤمن بقدسية العرض وتحترم العلاقات الشرعية بين الرجل والمرأة .

وقد قاوم الفكر الإسلامى منذ اليوم الأول تلك المحاولات التى عملت على حجب الشريعة الإسلامية ، وجاهدت القوى الإسلامية وعلى رأسها رجال القانون المؤمنون بتطبيق الشريعة الإسلامية للتحرر من نفوذ القانون الوضعى فى مجال الأوضاع الاجتماعية وفى مجال الاقتصاد بالتحرر من النظام الربوى ، ولم يستسلموا يوما واحداً لهذه القوانين الوضعية .

وفى نفس الوقت الذى يجاهد فيه طلائع اليقظة الإسلامية لتحرير المجتمع الإسلامى من القانون الوضعى والعودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، نرى المؤتمرات التى يعقدها أساطين القانون فى الغرب تتحدث عن عظمة الشريعة الإسلامية وتقرر أنها مصدر عالمى للتشريع والقانون كما حدث فى مؤتمرات لاهاى ١٩٣٢ ، ١٩٣٧ ، ١٩٣٨م والمجمع الدولى للقانون المقارن فى باريس ١٩٥١ والمؤتمر الدولى ١٩٥٤ فى واشنطون

وقد صدرت عن هذه المؤتمرات قرارات متعددة :

أولا : اعتبار التشريع الإسلامى مصدراً رابعا لمقارنة الشرائع .

ثانيا : الشريعة الإسلامية شريعة مستقلة وصالحة لمجاراة التطور الحديث .

ثالثا : الشريعة الإسلامية قائمة بذاتها لا تمت إلى القانون الرومانى أو إلى أى شريعة أخرى.

رابعا : صلاحية الفقه الإسلامى لجميع الأزمنة والأمكنة .

خامسا : تمثيل الشريعة الإسلامية فى القضاء الدولى ومحكمة العدل الدولية .

وقد قطعت البلاد الإسلامية فى العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجرى ، وهذا العقد من القرن الخامس عشر خطوات واسعة نحو تطبيق الشريعة الإسلامية ، وقامت هيئات متعددة فى مصر والأردن وباكستان والسودان لتقنين القوانين ووضعها فى صيغ عصرية .

١ ـ العلمانية :

ومن المحاولات التى قام بها النفوذ الأجنبى لهدم مفهوم الشريعة الإسلامية ، الدعوة الوافدة التى يطلقون عليها اسم : العلمانية . وهى دعوة قامت فى الغرب فى مواجهة

تحديات الكنيسة الكاثوليكية لنهضة العلوم ، حيث قصرت المسيحية عن أن تقدم للمجتمع الغربى فى مرحلة نهضة الوسائل الكفيلة بتطوره وتقدمه ، ومن هنا كان الفصل بين الدين والدولة . وقد حاولت قوى النفوذ الأجنبى نقل هذه المحاولة إلى أفق المجتمع الإسلامى بهدف ضرب النظام الإسلامى القائم على الربط بين الدين والمجتمع والذى يقوم على المنهج الإسلامى الذى يرسم عوامل الحركة فى مختلف أمور الأسرة والاقتصاد والاجتماع والسياسة . فالعلمانية لا تلائم الشعوب الإسلامية بصورة عامة ، فالفصل بين الدين والدولة معناه تجريد الدولة الإسلامية من أهم مقوماتها فالأمة الإسلامية إذا انفصلت عن الإسلام وعن رسالته تصبح كجسم منفصل عن حياته وروحه .

والإسلام بطبيعته نظام جامع يرسم خطوات الحركة فى مجالات التعامل والتعليم والصحافة والتربية والثقافة ، والعلمانية محاولة لإبعاد الإسلام عن مجال التوحيد والحياة العامة ، وبذلك ينفتح الطريق واسعاً أمام الدعوات الهدامة والإلحاد والإباحة .

ولقد كشف علماء المسلمين عن المحاذير التى تتصل بالدعوة إلى العلمانية من حيث فهم الإسلام على نحو ما فهمت المسيحية وقد تبين ما يأتى :

أولا : ليس فى الإسلام رجل دين ولا نظام كهنوتى يجعل لعلماء الدين نفوذا معيناً .

ثانيا : لم يقم فى الإسلام ما يسمى بالدولة الثيوقراطية أى دولة رجال الدين على النحو الذى قام فى أوربا .

ثالثا : لم يقف الإسلام أمام العلم موقفا مختلفا ، فالإسلام هو الذى أعطى العلم منهجه التجريبى وأقام مفهوم البرهان والدليل .

٢ ـ العقلانية :

كذلك فقد حاولت قوى النفوذ الأجنبى الدعوة إلى ما يسمى العقلانية أو عقلانية الإسلام فى مقابل العقلانية الغربية . والعقلانية مذهب انشطارى يحاول الزعم بأنه يمكن عن طريقه الوصول إلى فهم الأشياء والأمور ، وهو واحد من عدة مذاهب ظهرت فى الغرب ، ولما كان الغرب قد اعتمد مفهوم العلم والمادة والمحسوس أساسا للمعرفة فقد تجاهل جانبا هاما هو الجانب المعنوى والروحى والمتصل بالنفس الإنسانية

وحين يركز الغرب على العقلانية يحاول أن يفرض مفهوما انشطاريا يختلف عن مفهوم الإسلام الجامع للمادة والروح ، ولكن التركيز على العقلانية وحدها فى محيط

الفكر الإسلامى يضيع جانبا كبيرا من الواقع الذى يؤمن به المسلم ، وهو الغيبيات والوحى والنبوة وهى أمور أساسية أمرنا أن نؤمن بها لأنها جاءت فى القرآن الكريم وعلى لسان النبى ﷺ من لدن حكيم خبير

هذا فضلا عن أن العقل وحده لا يستطيع أن يستبين النافع والضار من الأعمال والأقوال والعقائد إلا بهدى من وحى ، ولكن إذا عرف فهم وصدق ، فالعقل خادم للحقيقة ولا يمكن للعقل بدون توجيه صادق أن يصل إلى الحقيقة ، فإذا وضع بين مقولات ضالة مضلة كالفكر البشرى فإنه يعجز عن أن يصل إلى الحق ، وقد تبين أن عقل الإنسان غير كاف فى الوصول إلى فهم علاقته بالله تبارك وتعالى ، ومهمته فى الحياة ومسؤوليته وأمانته والتزامه الأخلاقى ، ولابد من أن يحتاج إلى نور وهدى من النبوة والوحى ، هذا النبى يعاضد العقل ويؤكد حكمه ويجعله موثوقا فيما يستقل العقل بمعرفته ، فيكونان دليلين على مدلول واحد يرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل البعث والنشور ، كما يكشف عن وجوده الأشياء التى لا يدرك العقل حسنها وقبيحها ، ومن هذا تجىء ضرورة النبوة ، وقد التقى الوحى والعقل لأول مرة فى القرآن الكريم ، ومعنى هذا أن العقل لن يكون المصدر الوحيد للمعرفة الصحيحة ولا يمكن أن يصل وحده إلى الحقيقة .

ومن هنا فإن فكرة العقلانية فى الإسلام عليها تحفظات ؛ لأن الإسلام يجمع بين العقلانية والوحدانية معا ، ولا يقر استعلاء عنصر على عنصر .

سادسا : زلزلة مفهوم عالمية الإسلام بالدعوة إلى وحدة الأديان والقاديانية والبهائية

حرص النفوذ الأجنبى على زلزلة مفهوم عالمية الإسلام ، بالادعاء بأن الإسلام دين عربى ، أو أنه دين محلى ، للقضاء على المفهوم الحقيقى للإسلام بوصفه آخر أديان السماء وختامها ، وأن الرسالات السابقة كانت لأمم محدودة ، بينما جاء الإسلام للعالمين نذيرا ، بعد أن بلغت البشرية قدراً من الرشد ، يمكنها من تقبل الدين العالمى الخالد القادر على العطاء ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولقد جرت محاولات الاستشراق للتشكيك فى عالمية الإسلام على نحو أو آخر ، ولكنها عجزت لما تضمنته منظومة الإسلام من عطاء وافر ، ومن مرونة وسعة أفق ، ومن قدرة على مواجهة المتغيرات والأحداث ، ومن منهج جامع شامل ، ويجمع بين العلاقتين : الأولى بين الله تبارك وتعالى وبين الإنسان ، والثانية بين الإنسان والمجتمع .

وقد تعالت صيحات التغريب والغزو الثقافى بفرض مفاهيم ضيقة للعنصرية والأجناس ، فى محاولة للتأثير على مفهوم الإسلام الأصيل الذى استعلن بنزول القرآن ، والذى كشف عن انتماء البشرية كلها إلى أصل واحد : « كلكم لآدم وآدم من تراب » . والذى حدد الأفضلية والأسبقية والتمييز بين الناس عن طريق واحد هو العمل ﴿ **إن أكرمَكُم عندَ اللهِ أتقاكُم** ﴾ .

وليس عن طريق العنصر أو الجنس أو الدم أو اللون . لقد أزاح الإسلام هذه النزعة العرقية الغالية ، وصحح مفهوم البشرية فى انتمائها الأصيل وفى وجهتها الحقة . وكانت دعوة الإسلام ترمى إلى إسقاط التميز بالعنصر واللون والجنس والدم . وإعلام مفهوم الأخوة الإسلامية الجامعة ، ولكن قوى النفوذ الأجنبى عملت على تصدير نظريات العنصرية من منطلق الاستعمار الأوربى الحديث ، بالدعوة إلى الجنس الأبيض صانع الحضارة والأجناس الملونة ، التى تمر بمرحلة الضعف والتخلف ، والتى سقطت فى براثنه ونفوذه ، ولقد كشفت الأبحاث العلمية الدقيقة فساد دعاوى أصحاب مذهب العنصرية من أن هناك فوارق عقلية وتقسيماً بين الشعوب نتيجة اللون أو الجنس ، وتبين أن الفارق الوحيد هو فى الفرصة التى أتيحت لقوم دون الآخرين ، فى مجال الاحتكاك الحضارى أو التعليم ، وتأكد أنه ليس هناك ارتباط بين حضارة معينة وبين التكوين الجنسى لسلالة من السلالات .

ولقد كان موقف الإسلام من العنصرية واضحا وصريحا ؛ فقد كان المسلمون متحررين كل التحرر من أى شعور بالتحيز فى اللون ضد جيرانهم فى الجنوب ، ولا يقسمون الناس إلى أبيض وأسود ، ولطالما أشاد علماء المسلمين بأن البشرة السوداء تحمل نفسا رقيقة صافية .

ومن ناحيه أخرى عمد الغزو الفكرى إلى زلزلة عقيدة ختام الرسالة بإذاعة سموم متعددة تحت اسم وحدة الأديان أو ظهور أديان جديدة بعد الإسلام .

فقد جرت أقوال مضللة لبعض المستشرقين والتغريبيين تقول بأن الأديان الثلاثة هى بمثابة دين الله الواحد ، أو أنها جميعها من عند الله وهو قول يحتاج إلى تحقيق ، فالواقع أن دين الله فى أصله واحد ، ولكنه بعد أن جاءت رسالة موسى عليه السلام بالتوراة ورسالة عيسى عليه السلام بالإنجيل حدث تغيير وتبديل حال دون الالتقاء بالرسالة الخاتمة ، ففى كل من الكتابين ـ التوراة والإنجيل ـ إشارة إلى الرسالة الخاتمة : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل** ﴾ [الأعراف : ١٥٧] . وإلى النبى الخاتم ، أما فى التوراة الموضوعة بأيدى الأحبار والأناجيل الموضوعة بأيدى كتابها ، فإن هذه الإشارة لم تعد موجودة ، ولذلك فإن القول بأن دين الله واحد يستتبع الترتيب الذى جاءت رسالة موسى مسلمة إلى رسالة عيسى ، وكلاهما لليهود ، ومن حيث إنهما يسلمان إلى الرسالة العالمية الخاتمة التى جاءت للبشر جميعا ، ومن حيث القول بأن دين الله واحد ، فقد جاء الإنجيل ـ كما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز بتعديل أحكام التوراة ، إذ أعلن عيسى أنه جاء ليحل لبنى إسرائيل بعض الذى حرم عليهم ، وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة ، إذ أعلن أن محمدا ﷺ جاء ليحل للناس كل الطيبات ، ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

ولم يكن ذلك كله من المتأخر نقصا للمتقدم ، ولا إنكارًا لحكم من أحكامه فى إبانها، وإنما كان وقوفا عند وقتها المناسب وأجلها المقدر ، مثل ذلك مثل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل فى الطور الأول من حياته فقرر اقتصار طعامه على اللبن ، وجاء الثانى مقررا له طعاما ولبنا ، طعاما نشويا خفيفا ، وجاء الطبيب الثالث فى المرحلة التى بعدها فأذن له بغذاء قوى ، كل واحد منهم كان موفقا كل التوفيق فى علاج الحال الذى عرضت عليه، مع الاعتراف بقواعد عامة فى النظافة والتدفئة والتهوية لا تختلف باختلاف العصر .

وعلاقة الإسلام بالديانات السماوية فى صورتها الأولى علاقة تصديق وتأييد كلى ، وإن علاقته بها على صورتها المتطورة علاقة تصديق لما بقى من أجزائها الأصلية ، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات ، ومن الخطأ القول بأن البشرية قد انتقلت من إله إلى إله حتى اهتدت إلى التوحيد بعد آلاف السنين ، وقد نسى هؤلاء أن آدم عليه السلام والد البشرية الأولى كان موحداً ، ثم مضت القرون فانتكست الطبائع لدى من خلفه ، فألهوا المخلوقات من أصنام وحيوان وإنسان وجاءت الأنبياء تترى ، وعلى فترات ليردوا البشرية إلى دين الفطرة والتوحيد .

ومن هنا فإن الدعوة المحدثة إلى وحدة الأديان باطلة وتستهدف ضرب مفهوم الإسلام الذى يحمل الآن وحده مفهوم التوحيد الخالص ، ويرمى أصحاب هذه الدعوات إلى إعلاء اليهودية بالقول بأنها أول التوحيد مع أن التوحيد جاء مع بدء الخليقة ومع نبى الله الأول نوح ، ومن ينادى بهذه الدعوة إنما يرمى إلى إلغاء عالمية الإسلام أو تميزه الخاص، وقد جاءت دعوتا القاديانية والبهائية فى محاولة جديدة فى العصر الحديث للدعوة إلى وحدة الأديان بوصف كل منها بديلا عن الإسلام .

وقد كشفت الدراسات أن البهائية فى إيران والقاديانية فى الهند كانتا من المحاولات التبشيرية الاستشراقية الخطيرة التى ترمى إلى تحقيق هدف الماسونية فى ضرب الإسلام ، وقد وصفت البهائية المتطورة عن البابية بأنها ابتكار روسى، أراد به القياصرة الروس منافسة المساعى الغربية فى ديار الإسلام ، فإذا عرفنا أن الماسونية هى ابتكار يهودى صرف استفاد من إمكانيات الإنجليز والفرنسيين ، وأن القاديانية ابتكار إنجليزى صرف ، استخدموه للقضاء على دعوة الجهاد الإسلامى ، الذى كان يمارسه علماء الهند الأبرار ، عرفنا إلى أى حد يجرى التخطيط لاحتواء الإسلام والمسلمين . وما البهائية والقاديانية وليدتا الماسونية إلا حركات بديلة ووريثة للقرامطة وإخوان الصفاء والباطنية مع تعدد الأسماء واختلاف الأزمان والهدف واحد .

إن أخطر ما دعت إليه البهائية هو :

أولا : تأويل نصوص الشريعة والزعم بأن شريعة الباب ناسخة للشريعة الإسلامية ، ويستهدف التأويل تحويل القرآن والحديث ، وصرفهما عما يراد بهما من حكمة وهداية ، وقد ابتدعت البهائية لأتباعها أحكاما خاصة خالفت بها أحكام الإسلام وقواعده وغيرت أحكام الصلاة والصوم وأبطلت الحج ، وأنكرت معجزات الأنبياء : موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، وقالت بقدم العالم ، وادعت بأن الأنبياء ستروا الحقائق

تحت ستار الشعارات . ولا ريب أن التأويل فن ابتكره اليهود وقام فيلسوفهم (فيلون) بتأويل التوراة ، ذاهبا إلى أن كثير مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة ، ومن تأويلاتهم أن القيامة هى قيام الروح الإلهية فى مظهر بشرى جديد، وقالوا عن الجنة إنها فرح روحى وأن النار حرمان من معرفة الله .

ثانيا : إنكار البعث والجنة والنار ، وقد قلدت البهائية فى إنكار البعث طائفة الدهريين وهم يرون أن الجنه والنار فى الكتب المقدسة حقائق مرموزة .

ثالثا : إسقاط التكليف : والدعوة إلى إباحة الشهوات ودفع الإنسان ليكون أسيراً لشهواته وغرائزه ، وأهوائه ، وقالوا : إن أحكام الشريعة الإسلامية قد نسخت وأن الشريعة الثانية لم تصل إلينا فنحن الآن فى زمن لا تكليف فيه بشىء فافعلوا ما تشتهون ، وقد اتخذوا مدخلاً إلى ذلك الدعوة إلى المساواة بين الرجال والنساء فى الميراث وغيره ، وقد تعالت صيحتهم إلى تمزيق الحجاب بين الرجال والنساء تحت اسم دين الحب الذى كان مفهومه الصحيح : شيوعية الجنس .

ودين الحب الذى طبقوه فى مجتمعاتهم وحملت لواءه قرة العين لم يكن سوى إلغاء كامل لكل الضوابط الأخلاقية كى تنطلق الشهوات الدنيا فى الإنسان ، حتى يمارس فوضوية الجنس ، والمتعة الحيوانية المشاعة .

رابعا : دعوتهم إلى نزع السلاح وإنكار الجهاد .

خامسا : ادعــاء النبوة لبعض زعماء المذهب ، بل ادعاء الألوهية بالحلول والوحى من الداخل .

سادسا : اعتمادهم على تفسيرات الباطنية للمصطلحات المعروفة فى اللغة .

سابعا : التقاؤهم مع الماسونية فى تقويض الدين من نفوس الناس ، ومحو أثاره من المجتمع البشرى كله ، والماسون لا يخفون عداءهم للإسلام ويجهرون بالحديث عن سحق ما يسمونه عدوهم الأزلى الذى هو الدين، مع إزالة رجاله وعدم التردد فى شن الحرب على كافة الأديان ، لأنها العدو الحقيقى للبشرية ،

ثامنا : أسقطت البهائية فرائض الصلاة والصوم والحج ، والجهاد والحدود والقصاص ، وسائر ما جاء فى الكتاب والسنة من تعاليم .

تاسعا : مهاجمة اللغة الفصحى التى نزل بها القرآن إلى ما يسمونه اللغة النوراء ، واستنكار كون العربية لغة الدين الإسلامى ، ودعوتهم إلى اختراع لغة جديدة ، وإنكار إعجاز القرآن وأنه من عند الله تبارك وتعالى .

وقد كشفت الوثائق عن صلة البهائية بالصهيونية والبروتوكولات من جهة ، وصلتهم بالماسونية من جهة أخرى ، واستمدادهم من الباطنية القديمة واعتمادهم على الفلسفة المادية ومفاهيم الفرويدية والجنس ، وقد وصفهم صاحب كتاب (مفتاح باب الأبواب) بأن لهم دينا خاصا مزيجا من أخلاط الديانات : البوذية والبرهمية والوثنية والزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلام ، ومن إعتقادات التصوف الفلسفى .

وبالجملة فإن نحلة البهائية قد عارضت مفهوم الإسلام الصحيح الجامع فى عقائد أربع أساسية :

أولا : عقيدة جهاد الأعداء والصمود لعدوانهم .

ثانيا : عقيدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ثالثا : عقيدة الاحتفاظ بالذاتية الإسلامية وحمايتها من الذوبان .

رابعا : عقيده الحج لتثبيت الوحدة ودعم الجماعة الإسلامية .

أما القاديانية فهى خروج صريح على النبوة المحمدية ، وتوسيد المسلمين ليكونوا أولياء للنفوذ الأجنبى الغاصب ، بمفهوم خاطئ فى تأويل الآيات وضرب فريضة الجهاد ، والدفاع عن النفوذ الأجنبى باعتباره الطاعة لولى الأمر ، وهى ترمى إلى قطع صلة هذه الأمة بماضيها ، وعن خير أيامها وأفضل رجالها . وفتح الباب أمام أدعياء النبوة ، وخلق جو من اليأس. أمام المسلمين ، وتتفق القاديانية والبهائية على فكرة وحدة الأديان المسمومة وأن كلا منهما بديل من الأديان بهدف هدم الإسلام وحده ، وتتفقان على إلغاء فريضة الجهاد ، وعلى إلغاء التكليف وإسقاطه وعلى تغيير وجهة المسلمين نحو بيت الله الحرام فى مكة .

وقد اعتبرات الحكومة الباكستانية هذه النحلة أقلية غير إسلامية .

وقد استغل هؤلاء الفلاسفة نظرية التطور ، وأخرجوها إلى مجال هذه العلوم فى محاولة للقول بأنه لا يوجد شىء ثابت ، وأن كل شىء يستحيل ويتطور ويتحول من حال إلى حال ، وأن من ذلك الدين والأخلاق وهى نظرية مسمومة خطيرة ، تعزى إلى الفكر الصهيونى الذى يهدف إلى تدمير قيم الإنسان والحضارات بهدف السيطرة العالمية .

ويقف الفكر الإسلامى من النظرية المادية موقفا واضحًا فهو يقرر أن الإنسان مركب من بدن ونفس وجسم وروح ، وأن البدن من عالم المادة ، لأنه يمتاز بالخصائص المعروفة للأجسام ، أما النفس أو الروح فإنها من عالم آخر يختلف فى خصائصه عن المادة والإسلام فى جوهره ثنائى يقر بوجود الله ووجود العالم، وبوجود الدنيا والآخرة ، والروح والجسد ، والنفس والبدن ، وهو يدعو إلى الإقبال على الدنيا وبناء الحضارة الإنسانية والعمران والسعى فى الأرض ، ويجعل كل ذلك بهدف إقامة المجتمع الربانى .

وفى مجال هدم الثقافة الإسلامية الجامعة يجىء التفسير المادى للتاريخ الذى هو ثمرة الفلسفة المادية أساسًا . ويحاول التفسير المادى للتاريخ أن يصور للناس أن الارتقاء المبدئى يسير إلى حيث الارتقاء فى الوسائل المادية ، وإن الوسائل المادية وحدها هى أساس التغييرات الاجتماعية والإنسانية، وإن القوى المادية هى صاحبة السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله . وتراجع خطوة أخرى بعد أن تحطمت الذرة فقد تبين للعلم أن وراء هذا الكون المادى المحسوس عالما آخر ، وعرف أن هناك حقيقة كامنة وراء المظاهر ، وأن الكون ليس حقيقة فى ذاته ، وليس هو المظهر الوحيد للتعبير عن الحقيقة ، وأن هذه المفاهيم كلها قد وصلت إلى القول بأنه ليس من شك فى أن قوة مدبرة مفكرة عليا هى التى أبدعت الكون وهى التى تديره لحظه بعد أخرى ، وقال أرنست رارز فورد : إن نظرية المادة قد هدمت ، وإن الذى هدمها هو ما ثبت من أن الذرة تتكون من إلكترونات (كهارب) تدور حول (بروتونات) على نظام يحاكى النظام الشمسى ، وأن المادة لم تعد ثابتة لقد أصبحت تتحول إلى طاقة والطاقة تتحول إلى مادة . ومن هنا تأكد أن الأساس الذى قامت عليه المذاهب العلمية فى القرن التاسع عشر قد انهار وأصبح العلماء الآن يتكلمون عن الكون وعن الإنسان وعن الحياة والآن يكشف العلم عن ميادين جديدة تبحث عن الأرواح ، وأصل المادة وغاية الوجود ، إن مذهب دارون فرض وليس حقيقة وهو قابل للنقض .

ولقد تبين أن هناك خطأ كبيرًا فى إطلاق لفظ العلم على آراء الفلاسفة وفروض علماء الطبيعة ، ومن الحق أن يقال : إن نظرية دارون قد استغلت استغلالا بشعًا لتدمير قيم الإنسان ومفاهيم الروحية ، وإثارة الشبهات حول حقيقة وجود – الله تبارك وتعالى – والوحى والنبوة وغيرها ، وكان الهدف من استغلال النظرية المادية إشاعة روح الإلحاد والإباحية والتأثير فى مفاهيم الأخلاق والاجتماع .

ولقد طرح مفهوم الفلسفة المادية بشدة فى أفق الفكر الإسلامى هذا المذهب الذى يقوم على أساس المحسوس وحده منكراً ما سواه من عالم الغيب الميتافيزيقا إنكاراً تاما ، وتقوم النظرية المادية على اعتبار الكون موجودا بنفسه وقديما وغير منته ـ وهو ما يخالف حقائق الأديان المنزلة ـ والمذهب المادى ليس علما خالصا ، ولكنه فلسفة تقوم على فروض قابلة للخطأ أو الصواب ، ذلك لأنها تتصل بالجانب غير المحسوس وهو جانب يتحاشاه العلم لأن أنابيبه لا تستطيع أن تضعه فى مجال التجربة ، ومن هنا فإن التعارض بين المذهب المادى والواقع ليس خلافا بين الدين والعلم ولكنه خلاف بين الدين والفلسفة .

وحين تفترض الفلسفة المادية إنكار وجود الله ـ جل فى علاه ـ والأنبياء والبعث والجنة والنار إنما تختلف مع العلم الذى حدد عمله فى دائرة المحسوسات ولم يدخل فى الخلافات مع الغيبيات ، ومن هنا فإن النظرية المادية توضع فى مجال الفلسفة لا مجال العلم لأنها لا تجد لها سنداً من تجربة أو واقع أو برهان أو قياس ولكنها تجدد نظرية قديمة قال بها الملاحدة فى عصر من عصور التاريخ القديم .

ولقد تهاوت نظريات كثيرة فلسفية قامت على أساس نظريات علمية لم تلبث أن تجاوزها التجريب وكشف عن خطئها . ولقد تعالى العلم واستطال حين حاول أن يقتحم أفاق الكون ويعرف سر الحياة ثم تراجع واعتذر واكتفى بدراسة الظواهر .

وبذلك تنكر هذه النظرية أثر العوامل الروحية والفكرية والنفسية ، ويرى ماركس أن المادة تفسير كل شىء فى الكون وفى المجتمع الإنسانى وأن العامل الحاسم فى حركة التاريخ هى علاقات الإنتاج ، وأن التاريخ صراع بين طبقات تريد الاحتفاظ بالعلاقات القديمة ، وطبقات تريد التغيير وأن التاريخ بذلك هو صراع الطبقات ، ويقوم هذا المفهوم المادى لتفسير التاريخ على عدة أسس باطلة منها : أن ليس للكون خالق وأن الكون مادة ، وأن الأديان مخدر للعقول ، وأن الدعامة الأساسية هى إنكار الله تبارك وتعالى والبعث ، وأن المادية هى التى أنشأت الحضارة الصناعية الحديثة .

ومن هذه الخيوط العامة يتبين مدى التعارض الكبير بين مفهوم الفكر الغربى المسيحى اليهودى الواضح الأثر فى نظرية التفسير المادى للقيم وبين مفهوم الإسلام الجامع لجناحى الإنسان المادى والروحى والقائم على أساس الإيمان بالله خالق الوجود والإيمان بالغيب والوحى والنبوة والإيمان بالمسؤولية الفردية والجزاء الأخروى . وقد جرت محاولات واسعة لتطبيق نظرية التفسير المادى للتاريخ على التاريخ الإسلامى ؛ فى محاولة لتفريغه من

مقوماته وإطفاء نور الإيمان الذى هو العنصر المقابل للعنصر المادى ، والذى هو أحد دعائم التفسير الإسلامى للتاريخ .

وقد جرت المحاولات لتفسير تاريخ ، الإسلام على أنه صراع الطبقات أو أن المسلمين خرجوا للفتح نتيجة الفقر والحاجة ، كذلك فقد تبين أن العامل الاقتصادى ليس هو العمل الوحيد فى تفسير التاريخ ولكنه عامل من بين عوامل متعددة ، وأنه ليس أولها ، ولا أهمها، بل على العكس كانت المثاليات الدينية والأخلاقية المستقاة من الإسلام أولا هى العامل الأساسى فى حركة التاريخ ، ثم يأتى العامل الاقتصادى كعامل ثانوى فى معظم الأحيان .

ومن أخطر الشبهات التى حاول طرحها دعاة التفسير المادى للتاريخ محاولة تصوير عهد الرسول والخلفاء الراشدين بصورة الصراع بين اليمين واليسار ، وقد كان لهذا التصور بالإضافة إلى التصورات الأخرى أثرها فى الكشف عن فساد فهم التاريخ الإسلامى فهما صحيحًا .

ذلك أن التاريخ الإسلامى له تفسيره التاريخى الذى يختلف عن التفسير المادى الذى قدمه ماركس ، والتفسير الدينى الذى قدمه توينى ، والذى يقوم على استعلاء الحضارة الغربية بالمسيحية ، ذلك أن أبرز مفاهيم التفسير الإسلامى للتاريخ هو التوحيد والعدل والاخاء الإنسانى ، وقيام المجتمع على أساس الأخلاق ، دون تفرقة بين العناصر والدماء والقضاء على صراعها والتفاخر بها ولقد كان من أخطاء التفسير الماركسى هذه التفرقة بين اليمين واليسار وهى تفرقة لم يعرفها الإسلام .

ومن أخطاء التفسير المادى للتاريخ تصور الإسلام على أنه ثورة اجتماعية أو اقتصادية، بينما كان الإسلام دعوة ربانية ، وليست بشرية لها صفة المنهج الجامع الإنسانى الطابع ؛ ولذلك كان من الخطأ تصور الرسول ﷺ المؤيد بالوحى على أنه رسول الحرية أو بطل الأبطال ، أو غيرها من الأوصاف أو أن الإسلام حركة اجتماعية فحسب لتحرير العبيد أو العدل الاجتماعى .

كذلك فإن الكتابات التى قدمها دعاة التغريب والماركسيون عن التاريخ الإسلامى — سواء فى تفسير التاريخ أو الترجمة لعظماء الإسلام — كانت ترمى إلى إطفاء جزوة الإيمان التى حققها الإسلام وتفسيرها تفسيرا ماديا ، أو تفسير الإسلام قوميا أو عربيا . أو اعتبار الإسلام حركة عنصرية أو إيقاع الخلاف بين العرب والترك والفرس ، أو إخفاء الروح

الإسلامى التى لها أثرها التربوى فى النشء المسلم أو تجريد المعارك الإسلامية من نفحات الإيمان ومن تأييد الله وإنكار المعجزات ، أو تجاهل غلبة المسلمين لأعدائهم وهم أقل عددًا نتيجة الإيمان وبيع النفوس لله خالصة .

وكان من أخطاء دعاة التفسير المادى للتاريخ إبراز الخلافات القليلة التى توجد فى كل تواريخ الأمم ، والإغضاء عن المعطيات الكثيرة الكبرى ، والاهتمام بجانب الولاة، وتجاهل القاعدة الشعبية العريضة المؤمنة .

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع : ٤١٦٩ / ١٩٩٤م

I .S.B. N:977-255-096-2

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN